



ممدوح الشيخ  
القاهرة...  
بيروت...  
باريس...



رواية

# القاهرة... بيروت... باريس...

رواية

ممدوح الشيخ

توقف الرجل عن الكلام واستدعى الأمن من هاتفه الداخلي، فجاءوا الحمل بهي الذي أغمي عليه وراح في غيبوبة. بقي في غرفة مجاورة حتى انتهت الإسعافات الأولية.. أفاق بهي وجاءه بعد قليل الفرنسي المتعرب يرمقه بنظرة هي خليط من الإشفاق والازدراء، وبادره قائلاً:

«نحن ندرك شعورك الطاعني بالاختلاف عنا... ولهذا فضلنا أن نصدر الجزء الأكبر من هذه اللحوم الناتجة عن مشروع تجريبي إلى الدول الأوروبية كمعلبات مخصصة لتغذية الحيوانات الأليفة... والجزء القليل الذي صُدر إلى بلادكم جاء إليها عبر مافيا معروفة تشتري منتجات مماثلة من الأسواق الأوروبية بأسعار زهيدة وتعيد تغليفها وتصديرها».

استدار الفرنسي المتعرب وأطلق عينيه خارج النافذة مستطرداً: «.. وفي النهاية، هذا الخطأ الذي أثارك لدرجة القياء يا مسيو ثمن طبيعني للتقدم... فلا تقدّم دون ثمن وتضحية وقسوة... طبيعتكم العاطفية من أهم أسباب رؤيتكم السلبية لنا... نحن نجرب فنصيب ونخطئ... وبالتالي نتقدم...».

ثم حدّق في عينيه متحدياً: «.. أما أنتم فالزمن يتجاوزكم وأنتم مقيّدون بقيود العاطفة والقداسة... إنني أحدثك باعتبارك مثقفاً سيعني معنى ما أقول...»

وصمت بهي للحظات...

ثم بصق في وجهه!!

ISBN 9953-29-809-2



9 789953 298092

ص. ب. 13-5574 شوران 2050-1102

بيروت - لبنان

هاتف: 785107/8 (+961-1)

فاكس: 786230 (+961-1)

البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb



الدار العربية للعلوم  
Arab Scientific Publishers  
www.asp.com.lb

www.neelwafurat.com

نيل وفرات.كوم



جميع كتبنا متوفرة  
على شبكة الإنترنت

**القاهرة...**

**بيروت...**

**باريس...**



## هذه الرواية

هذه الرواية هي الأولى لكتابتها وقد حصلت على المركز الثالث في الدورة الثانية (2005) للمسابقة السنوية الأدبية التي تنظمها "الهيئة العامة لقصور الثقافة" بمصر برعاية "دار أخبار اليوم للصحافة"، ويمنح جوائزها الكاتب المصري الأستاذ أحمد فتحي عامر (مستشار مؤسسة الفكر العربي).

وكانت لجنة تحكيم الرواية في هذه الدورة مكونة من:

الأستاذ الدكتور محمد حسن عبد الله	الأستاذ بجامعة القاهرة
الأستاذ محمد مستجاب (رحمه الله)	الروائي المعروف
الأستاذ مصطفى عبد الله	مشرف الصفحة الأدبية
	بجريدة الأخبار

**القاهرة...  
بيروت...  
باريس...**

رواية

ممدوح الشيخ



الدار العربية للعلوم  
Arab Scientific Publishers

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية  
أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل  
على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها  
حفظ المعلومات، واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر

ردمك: 2-809-29-9953

الطبعة الأولى

1427 هـ - 2006 م

جميع الحقوق محفوظة للناشر



الدار العربية للعلوم  
Arab Scientific Publishers

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بنالية الريم،

هاتف: 860138 - 785108 - 785107 (1 - 961)

ص. ب: 5574 - 13 شوران - بيروت 2050 - 1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1 - 961) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

---

للتبضيد وفرض الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)

## المحتويات

7	القاهرة - العاصفة.....
25	القاهرة - الكهف.....
35	القاهرة - لفحة حنين.....
59	بيروت - وتعطرت للموت.....
73	بيروت - المجهول.....
89	بيروت - باريس.....





القاهرة

العاصفة



# 1

في الصباح تبدو شوارع الأحياء القديمة من القاهرة مجهدة وحيّة ونابضة بالحياة، فيها يقبع ما تبقى من روح هذه المدينة... ليس فقط من البنايات القديمة بل العلاقات الدافئة والأشياء التي تجاهد لتحفظ لنفسها بموطئ قدم في مدينة تكبر.. وتتغير.. وتزدحم.. وتكفهر.. ولا تشيخ.

وكلما ازدادت المسافة بين الأحياء الراقية الجديدة التي ترسم صور القاهرة الحديثة اقتربت هذه الأحياء القديمة من المتحف المفتوح، فكان سكانها في مقاهيهم القديمة.. وحوانيتهم المتواضعة الضيقة.. وشرفات منازلهم المتراكلة وشوارعهم المليئة بالحفر يقدمون عرضاً طبيعياً لصورة زمان ولى، وعندما يزور القاهريون الأكثر حداثة، هذا المكان/الزمان إنما يريد كل منهم أن يرى صورة ماضيه بخنٍ لاعتقالي ممزوج بالتعالي والإشفاق على سكانها، بينما سكانها مقتنعون بشكل راسخ بأنهم في المكان الذي ينبغي أن يكونوا فيه... وهم من ثم يستخدمون كثيراً تشبيه علاقة السمك بالماء لوصف علاقتهم بعالمهم.

وفي هذه الأحياء تبدو القاهرة أقل تغوّلاً وقسوة.. وأكثر إنسانية.

وعندما تشرق الشمس على شارع زهران المتفرع من شارع حسن الأكبر بحي عابدين تتشكل بالتدريج لوحة بدیعة من الناس والحجارة والعربات، ويشارك معظم أصحاب الحوانيت في الشارع الصغير في طقوس لا تكاد تختلف.. تحيّات مثقلة بالخدر... قليل من الماء يرشّه كل منهم أمام بابه... أدعية بالبركة والرزق، ويبدأ صرير الأبواب يتوالى واحداً تلو آخر لتكتمل صورة الشارع.

"صباح الخير يا أستاذ محسن".

ألقاها بنبرة ودودة حسن عامل المقهى وخدر النوم يطل من عينيه راسماً خطوطاً بارزة وغائرة في وجه خشن الملامح تتماهى سمرته المختلطة باصفرار واضح مع لون الفوطة التي يرتديها فوق قميص وسروال رخيصين وكانت ذات يوم بيضاء. يرتب حسن المقاعد والمناضد فوق الرصيف أمام المقهى الصغير الذي تحولت معظم ألوانه إلى سحابات رمادية متقاطعة، وتتوزع نظراته بين الرصيف والشاب المار أمامه الذي بادره التحية بالإشارة وهو يتجه إلى باب خشبي عريض مطلي بلون داكن تبدو عليه علامات الزمن خدوشاً وخريشات غير منتظمة.

فتح محسن قفل الباب ودخل إلى المكتب ليمارس طقوسه اليومية... فتح باباً من الألوميتال يقسم المكتب نصفين، حيث في النصف الداخلي يوجد مكتب صاحب الشركة. فتح محسن نافذة مكتب صاحب الشركة ليدخلها هواء جديد.. أخرج سلة المهملات لإفراغها من محتويات اليوم السابق، وأعاد النظام للمكتب الصغير ذي المظهر المتواضع ثم عاد إلى القسم الخارجي حيث مكتبه هو. التقط منفضة من الريش واتجه للباب الخارجي ومررها على اللافتة الخارجية ليزيل الغبار عنها. ألقى نظرة عابرة على خط الثلث الأنيق الذي كتبت به اللافتة، أعاد المنفضة إلى مكانها على المسمار المختبئ وراء الباب الخشبي للمحل.

دبّ النشاط في جسده بالتدريج... فهو منذ تخرج في كلية التجارة قبل أحد عشر عاماً اعتاد جسده على دورة من النشاط والاسترخاء تكاد تكون ثابتة، وعالمه محصور بين البيت الذي يبعد عدة أمتار من مكان عمله والمقهى المواجه، سنوات عمره التي تقترب من منتصف العقد الرابع من العمر لا يعكسها مظهره فالنظارة والكرش الواضح يضيفان عليه

مظهر رجل يقترب من الخمسين. جلس محسن خلف مكتبه المعدني المواجه تماماً للباب، وجاءه عامل المقهى بمشروب الصباح، فنجان قهوة تركي معدّ بعناية لزبون دائم، وضع القهوجي فنجان القهوة وانسحب في هدوء. استدار محسن ناحية الهاتف وأدار القرص... فجاء الرد من الطرف الآخر سريعاً:

"صباح الخير يا فؤاد بيه."

"الحمد لله".

"اطمنن يا افندم فلم أنصرف بالأمس إلا بعد أن دخلت البضاعة كلها المخازن.. يبقى الآن فقط طباعة غلاف اللعبة والمطبعة جاهزة للعمل".

"أوامرك يا فؤاد بيه.. سأرسل إليه فوراً".

مدّ محسن رقبته يحاول اقتناص القهوجي الذي يتحرك كالبنّودول ولا يستقر في مكان، وانتبه القهوجي فهول إليه ومدّ يده بشكل آلي ليأخذ فنجان القهوة فأشار إليه محسن أن يتركه:

"لا.. لم أشرب القهوة بعد.. أريد منك أن ترسل لي عم شفيق الخطاط بمجرد أن يظهر.. فاهم؟".

أوماً العامل برأسه وانسحب تحت ضغط تصفيق زبائن الصباح الذي لا ينقطع. خرج حسن وأخرج محسن من أحد الأدراج ملفاً من الأوراق والمعمك في القراءة.. ثم أخرج الآلة الحاسبة وبدأ ينقل عينيه بكفاءة بين الأوراق وشاشة الآلة الحاسبة. كل شيء يشير إلى يوم عمل شاق ومهمة تستغرق كل تركيزه.

دقّ جرس الهاتف ورفع محسن السماعة مسرعاً:

"آلو".

"نعم.. شركة أسواق الشرق العربي لاستيراد الأغذية.. لا فؤاد بيه غير موجود".

"ربما لن يأتي اليوم... فهو مشغول بارتباطات خارج المكتب."  
"إذا أرسلتم أمر التوريد اليوم يمكن أن تستلموا البضاعة بعد غد صباحاً".

"لا.. لا.. بالفاكس، الهاتف لا يصلح".  
"نفس الرقم.. سأفتح لك الفاكس".

استندار وفتح الفاكس ووضع سماعة الهاتف والتفت إلى المكتب متأهباً لمواصلة الغرق في الأوراق والأرقام فوجد عجزاً يجلس على المقعد المواجه للمكتب..

عم شفيق الخطاط. وجه فيه إحساس غريب بالطمأنينة والغربة معاً. تجاوز السبعين بعدة سنوات قضى الشطر الأكبر منها على منضدة في هذا المقهى حيث يمارس عمله الذي فرض عليه الخناء صارت تميز قوامه ونظارة سميكة وآثار حبر متفرقة على يديه. جاء صوت العم شفيق هادئاً دافئاً:

"كنتَ منهمكاً في الردّ على التليفون، وكانت فرصة لأن ألتقط أنا أنفاسي".

"ربنا يقوّيك يا عم شفيق... فؤاد بيه كما تعلم لا تقنعه خطوط الكمبيوتر ويصر على أن تكتب بنفسك كل ما نحتاج إليه. ونحن نحتاج منك بسرعة أن تكتب لنا بيانات منتج جديد نريد أن ينزل الأسواق بأقصى سرعة، باختصار يا عم شفيق... الموضوع كله متوقف عليك".

دخل القهوجي ووضع فنجاناً من القهوة أمام الرجل العجوز  
وافهمك محسن في البحث عن ورقة البيانات التي سيكتبها الخطاط من  
درج إلى آخر فقال له العم شفيق بنبرة واثقة:

"البيانات معروفة يا أستاذ محسن، فأنا منذ ثلاثين عاماً أعمل مع  
فؤاد بيه، وقبله مع أبيه الله يرحمه... لا تجهد نفسك في البحث".

رفع محسن رأسه وابتسم وبدأ أنه يريد أن يلاطف الرجل العجوز،  
فابتسم وقال في نبرة ودودة:

"ثلاثين سنة يا راجل يا عجوز؟".

ضحكا، فقال محسن:

"ألم تجرب الكتابة بالكومبيوتر يا عم شفيق؟".

فقال شفيق وهو يرشف فنجان القهوة:

"جربت.. عندما ظهر كنت من أوائل من تعاملوا معه، وحاولت  
استخدامه في إنتاج لوحات تجمع بين دقة الآلة ورقة الإنسان،  
لكنني اكتشفت في النهاية أنه آلة... آلة بلا روح".

اتسعت عينا محسن الجامعي نصف المثقف من الدهشة وهو يسمع  
هذا العجوز البسيط المظهر يتحدث عن الرقة والدقة والإنسان والآلة.  
وقطع العم شفيق دهشته:

"لا تندesh يا بني... أم أقول لك يا أستاذ محسن؟".

واكتست ملامح محسن، رغم إحساسه المفرط بالانشغال وضيق  
الوقت، ببشاشة واضحة:

"لا يا عم شفيق بل أنت الذي يستحق عن جدارة وصف

الأستاذ... تفضل أكمل كلامك".

رشف شفيق رشفة أخرى من فنجان القهوة وأشار إلى لوحة معلقة على جدار المكتب خلف محسن وقال:  
"انظر إلى هذه اللوحة".

والتفت محسن إليها، وشعر وهو الذي يقضي شطر النهار في المكتب يوماً لسنوات أنه للمرة الأولى يراها بوصفها لوحة، كانت نبرات عم شفيق في حدّ ذاتها دعوة يصعب رفضها للتأمل والتأني. وقبل أن يكمل شفيق كلامه دقّ جرس الهاتف فرفع محسن السماعة بشكل آلي، وبدأ من الحوار بوضوح أن المتحدث يستعجل ورقة البيانات التي سيكتبها عم شفيق وأن المطبعة تنتظرها.

أخرجت المكالمات محسن من حوار لم تألفه أذناه، حوار جعله يقدر هذا العجز تقديرًا مختلفاً وينظر للخطوط التي تركتها السنون على ملامحه نظرة أخرى... نبهته المكالمات بحدة إلى أن الوقت أضيق من أن يحتمل مثل هذه المناقشات المسترخية، حتى لو كانت ممتعة، ترجم إحساسه فوراً بشكل لاشعوري إلى تلطف واضح لإنهاء المناقشة:

"لا مؤاخذه يا عم شفيق.. كما ترى المطبعة تنتظر وصول ورقة البيانات".

"وأنا جاهز إن شاء الله".

قالها شفيق وهو يأخذ الرشفة الأخيرة من الفنجان ويهم بالقيام متشاقلاً.



خرج العم شفيق واتجه للمقهى ليجلس على منضدة بعينها اعتاد منذ سنوات أن يجلس عليها ليمارس عمله، حدّق في المنضدة فرأى في بقايا الحبر الذي يلطخها في خطوط متقاطعة سنوات عمره. تحسست أنامله قطعة الرخام والهيكल المعدني في ألفة غامرة وهطلت الذكريات كأنها مطر غزير... فمنذ سنوات لم يعبر الجسر الفاصل بين المهنة والفن ولم يخض نقاشاً من هذا النوع، أحياناً يشعر العم شفيق أنه هُزم وتحول إلى مجرد "صناعي" وجاء هذا الحوار العابر لينكأ جرحاً شديد العمق.

"الفن أنبل ما في التاريخ البشري"... هذه العبارة التي سمعها شفيق من مُدرّسه يوم التحق للمرة الأولى بمدرسة الخطوط العربية بشارع نوبار شاباً صغيراً يبحث عن يعلمه كيف يصبح خطه الجميل مصدر دخل يرتزق منه. ومرت السنوات قبل أن يعرف شفيق أن هذا المُدرّس العجوز فنان عظيم أعطى عمره لفن الخط والزخرفة وأدرك في نهاية رحلته أن الزمن ليس زمنه فوهب عمره للحبر وقنع بأن ينقل شيئاً من النبيل للأجيال القادمة... تحسست يده الخطوط والنقاط المتشابكة وتمتم: "الله يرهك يا أستاذ حامد... الله يرهك ويساعحك".

وبدأ صوت داخلي ينساب في أعماقه مستعرضاً رحلة العمر:

"كان هدفك يا أستاذ حامد أن تضع على كاهل كل تلميذ من تلاميذك مسؤولية الدفاع عن النبيل في هذا العالم... لكنك دون أن تقصد وضعت على كواهلنا الضعيفة كل التاريخ البشري... ربما لم تتخيل أن يأتي يوم يتحول فيه الناس من جهل النبيل أو تجاهله أو

الاستخفاف به إلى كراهيته.. بل إلى الرغبة في قتله.. هذه هي الحقيقة يا أستاذ حامد... البشري أصبح كل طموحه أن يقتل بشريته ويؤكد حيوانيته".

اقترب القهوجي من شفيق حاملاً حقيبة جلدية عدّت عليها عوادي الزمن وإن لم يخلُ مظهرها من آثار عز اندثر، وضع الحقيبة وهو يمر حاملاً في يده الأخرى بعض المشروبات فأسقطها في حافية المعتاد ومرق. تناول شفيق حقيقته وقد استبد به وجدٌ غريب اعتصره اعتصاراً، حاول أن يخرج أشياء بالترتيب المعتاد والعناية نفسها لكن يده خائتاه، وبالتدرج بدّت الخواطر المتدفقة سكينته، كان موزعاً بين ذكريات دافئة ومرارة لم تفارقه منذ انتهى به مشوار الطموح والأمل على مقعد في مقهى صغير يبحث عن قوت يومه مولياً ظهره لعالم كان أسبق منه في الانصراف عنه وعن موهبته. غالب الرجل العجوز اضطرابه شيئاً ما وبدأ يكتب.

وسكنت ملامحه بعد لحظات ثم سكنت جوارحه إلا من حركة أنامله الدقيقة كأنها مبضع جراح... وصار معطل الحواس لا يشعر إلا بحركة الريشة وسننها الدقيق، حتى أخرجه من عزلته محسن بصوته الجمهوري وهو يتحدث مقرباً منه في تعجل شديد:

"الله يا عم شفيق".

قالها حتى قبل أن يرى ما خطه الرجل بسن الريشة الدقيق.. وأكمل بصوت أقل ارتفاعاً:

"كان عندك حق يا عم شفيق... كأنني أرى اللوحة لأول مرة".

ارتسمت على وجه العم شفيق ابتسامة عريضة وهو يشعر هو الآخر لأول مرة منذ سنوات أنه ليس وحده في عالمه الفريد... أصبح الآن يأمل

أن يجد من يشاركه حمل عبء التاريخ البشري، وقال لمحسن:  
"الآن أحسست بالسبع الإنسانى فيه... لأنه بشرى، فيه قيس  
إلهى".

... انطلقت الكلمة من بين شففى محسن حملة بصدق حاد  
كالنصل:

"الله يا عم شففى...".

وسريعاً استعاد محسن إحساسه بالتعجل وضيق الوقت فقال:  
"لا بد أن تكون لنا جلسة أخرى أسمحك فيها بعيداً عن مشاغل  
العمل".

تحول صوت محسن إلى نبرة أكثر جدية، وقال:

"اسمع يا عم شففى.. هذه الورقة فيها البيانات الجديدة..".

ثم قال بلهجة تقريرية:

"طبعاً أنت تعرف بيانات الشركة كلها وتاريخ الصلاحية وما إلى  
ذلك.. أنا مضطر للانصراف فوراً، الساعى عند فؤاد بيه فى المنزل  
وسيعود إلى الشركة خلال ساعة، أعطه الورقة بعد أن تكتب وهو  
يعرف ماذا يجب أن يفعل".

كان الكلام يتوالى يدفع بعضه بعضاً دون فرصة للرد فأوماً لمحسن،  
وأدرك أن الوقت من الضيق بحيث لا يتسع لأي نقاش ولا يحتمل  
استرسالاً فى التأمل. تناول ورقة البيانات وبدأ يقرأ:

"لحم بقري مجمد".

"المنشأ تايلند".

"الصلاحية...".

وتلاشت الكلمات من أمام عينيه وبدأ يفرق في خواطره مرة أخرى.. عبارات بعينها حفرها الأستاذ حامد حفرأ في وجدان العم شفيق وعقله، وبقيت كلمة واحدة تتردد على مسامعه... كلمة واحدة "بشري".. "بشري".. وسيطر على العجز إحساس بأن الخواطر استضعفته، ورأت خطوط الزمن على جبهته ورعشة يديه فطمعت أن تمزقه. واستجمع قوته - أو هكذا تصوّر - وبدأ يصارع في منازل غير متكافئة. أنجز شفيق المهمة وحمل الأوراق إلى مكتب الشركة فخرج الساعي لاستقباله في توقيع يليق بشيئته، فكلمات الترحيب تتوالى واليد تمتد لتعين الرجل على الاستقرار على مقعده. مدّ شفيق يده للساعي بالأوراق، فأخذها الساعي بعد أن استأذن العم شفيق، وطار للمطبعة وتركه، بعد أن طلب له كوباً من الشاي من المقهى.

دارت ماكينات الطباعة، وانتقلت الأوراق في سرعة وتوتر بين أيدي العمال الأمين، وكان تأخير عم شفيق في الكتابة سبباً في انصراف صاحب المطبعة نفسه مطمئناً إلى مهارة عماله وخبرة العم شفيق. حملت الأوراق المطبوعة على سيارة لنقلها للمخازن، وهذا رنين الهاتف المتوالي بعد أن اطمأن فواد بيه إلى بدء المرحلة الأخيرة من تجهيز المنتج، وجلس محسن في المكتب يتلقى أوامر التوريد ويكتب الفواتير، والعمال في المخازن في سهرة خاصة طالما سهروها مع كل منتج جديد يتم تجهيزه.

دق جرس الهاتف ورفع محسن السماعه، جاءه صوت فواد بيه واضحاً فخلع النظارة وفرك عينيه المتفتحتين المجهدتين من طول التحديق في الأوراق وشاشة الآلة الحاسبة. نظر إلى ساعة الحائط المعلقة خلفه ولم ينتبه إلا في هذه اللحظة أن الساعة تجاوزت الثانية صباحاً بقليل. أوقف جرس الهاتف حركة الماكينة المكوكية بين شاشة الآلة الحاسبة والأوراق المتناثرة.. وخرج صوت محسن مجهداً نصف مبحوح.

انتهت المكالمه سريعاً فأنعشته لأنها حملت وعداً بالراحة، فبإمكانه أن يستريح في البيت غداً لأن الباقي من عمليات الشحن والتسليم لا يحتاج وجوده. وحمل محسن مفاتيحه وغادر المكان مشيراً لأحد العمال أن يغلق الباب.

عاد محسن من الإجازة القصيرة وهو يشعر بمحمول لذيد ويحاول أن يستعيد قدرة الآلة شيئاً فشيئاً، فتح الباب ونظر أمامه فرأى لوحة الخط المعلقة على الحائط منذ سنوات، تذكر كلام شفيق فتأملها وشعر أن التأمل نفسه يحتاج إلى تعود. بدأ محسن في ممارسة طقوسه اليومية.. جلس على كرسيه وقفزت لذهنه فكرة، أتكون الطقوس اليومية التي أمارسها منذ سنوات هي التي تحجب عني ما يراه رجل مثل عم شفيق؟ دخل عامل القهوة ووضع الفنجان اليومي أمام محسن الذي لم يستكمل دورة الحركة الروتينسية، فلم يفتح مكتب صاحب الشركة ولا أفرغ سلة المهملات... انسحب حسن وفي يده الصينية في هدوء فقال محسن مستوقفاً:

"هل جاء عم شفيق؟".

فقال العامل: "نعم".

ردّ محسن بنبرة متحمسة:

"أحضر له قهوته ليشربها معي هنا".

دخل العم شفيق فحياً محسن وجلس وهو يشعر بألفة تنمو بينهما شيئاً فشيئاً، والتفت محسن إلى اللوحة المعلقة خلفه على الجدار وسأل:

"منذ متى كتبت هذه اللوحة يا عم شفيق؟".

ابتسم الرجل وقال بلهجة تعليمية يغلفها الود الشديد:

"أولاً يجب أن تواجه اللوحة حتى تستطيع أن تتذوقها، فالعمل

الفني كالإنسان لا يستطيع أن تنفذ إلى قلبه ما لم تجعل عينيك في عينيه بشكل مباشر".

اندهش محسن وهو يسمع كلمات الرجل العجوز والدفء الغامر في أحرفها والعمق الشديد في معانيها:

"أهذه الدرجة تحب الفن يا عم شفيق؟".

"الفن شيء نبيل يا أستاذ محسن، والنبيل أجدر الأشياء بالاحتراف في هذا العالم... وهو من نتائج تكريم الله للإنسان... وفي حدود علمنا فليس للكائنات الأخرى فنون".

زال الحاجز تماماً بين السامع والمتكلم، وكشف العم شفيق عن المثقف في داخله واستخدم معجماً لم يسمعه محسن على لسانه قبل الآن. شعر محسن أن عليه أن يتعلم وأن يجلس من شفيق مجلس التلميذ من أستاذه.

ترك العم شفيق حديث الفن وسأل محسن: "ما مؤهلك يا أستاذ محسن؟".

ورد "بكالوريوس تجارة...".

وضاع صوت محسن فجأة... وانتبه معاً على صوت سيارة شرطة تطلق نفيها وتتجه بسرعة ناحية الشركة مثيراً سحابة كثيفة من الغبار وتظاهرة من النظرات المتسائلة في الشارع الهادئ. وقفت السيارة أمام باب الشركة ونزل منها عدد كبير من الجنود أحاط بعضهم بالباب وانتشر آخرون داخل المكتب. عقدت المفاجأة لسان محسن ووقف بشكل لاشعوري بينما العم شفيق يجلس في سكون مترقباً... كانت ملامح الضابط الذي نزل من السيارة واتجه نحو الباب توحى بالصرامة لدرجة

مخيفة.

ابتلع محسن ريقه وتكلم بصعوبة: "خير يا أفندم؟".  
"أنت صاحب الشركة؟" قالها الضابط كما لو كانت مقدّمة لكارثة،  
فردّ محسن متلعثماً:

"لا.. لا يا أفندم... صاحب الشركة فؤاد بيه عبد القادر وهو غير  
موجود".

بدأ الضابط يتحرك متفحصاً كل شيء في صمت دون أن يتخلّى  
عن صرامته، وقال في تمكّم لا يخلو من عدوانية: "وأنت ماذا تعمل؟".  
"محاسب يا أفندم".

"وأين صاحب الشركة؟".

"في المنزل يا أفندم".

قالها محسن وهو يمد يده إلى الهاتف، وبدأ وهو يحاول تهدئة  
الضابط كما لو كان ينزع فتيل قنبلة توشك أن تطيح برأسه. طلب  
الرقم في ارتباك شديد وانتظر أن يردّ الطرف الآخر لحظات مرت كأنها  
أيام، وهو يختلس النظر للضابط وكأنه يتوقع أن يطلق عليه الرصاص  
دون تحقيق أو محاكمة بل حتى دون أن يعرف ما همته.  
"فؤاد بيه".

قالها كأنه انتشل من الغرق "ضابط يسأل عن حضرتك يا  
أفندم"، وقبل أن يكمل كلامه انتزع منه الضابط منه سماعة الهاتف  
بعنف وقال بلهجة أمرة:

"أنت مطلوب في النيابة حالاً".



"عندما تذهب ستعرف".

"نيابة جنوب القاهرة... ومعى أمر بإغلاق الشركة سأنفذه

فوراً".

أعطى الضابط السماعه لمحسن وصوت فؤاد مسموع بوضوح  
يحاول أن يتفاهم معه، ووضع محسن السماعه على أذنه وهو مذهول مما  
يحدث ثم وضعها لينهى المكالمه. تأبط محسن عم شفيق الذي بقي صامتاً  
لا يدري ماذا يفعل وخرجوا... فأشار الضابط للجنود فخرجوا وأغلقوا  
الباب... ووضعوا عليه أختام الشمع الأحمر.

وتلاشى غبار انطلاق السيارة وهي تغادر المكان... وبقيت

الأسئلة.



القاهرة

الكهف



غادر فؤاد عبد القادر منزله مبكراً على غير عادته دون أن يتهاون في شيء من مظهره المتأنق دائماً، فهو وإن كان في النصف الثاني من العقد السادس من العمر إلا أنه يردد منذ فترة أنه في المرحلة التي سيقطف فيها ثمرة سنوات العرق، وما الشقة الجديدة في ضاحية المهندسين الراقية والمفروشات الفرنسية الراقية التي فرشها وكلفته ما يقارب المليون جنيه إلا استجابة لهذا النداء الذي يلح عليه منذ سنوات ليستمتع بثروته التي تحولت من عدة مئات من الآلاف ورثها عن أبيه إلى عدة ملايين خلال سنوات لا تتعدى العشرين عاماً.

ركب فؤاد عبد القادر سيارته الميتسوبيشي السوداء الجديدة ولم يتفقدوها كما كان يفعل يوم منذ اقتناها قبل أقل من شهر بل أدار محركها وامتدت يده لفتح الراديو كما اعتاد يومياً غير أنه كان راغباً في أن يفكر في المفاجأة التي تنتظره فأغلقه بشكل عصبي، مرت الدقائق بطيئة عسيرة مرعبة حتى وصل إلى نيابة جنوب القاهرة. نزل من سيارته أمام مبنى النيابة ودلف إليه كأنه يدخل كهفاً ضخماً مليئاً بالخفافيش، رعب.. رعب غريب لا يدري له سبباً كان يحتاجه... كأنه يساق مقيداً إلى مذبح ليقدم قرباناً لإله يوناني أرعن لا يرضيه إلا إنزال الكوارث بأي بريء. زاغ بصر فؤاد وهو يبحث في الممر الطويل نصف المعتم عن مصدر للإحساس بالأمن... وجه يعرفه... صوت يناديه.. أي بصيص من نور في هذا الكهف المظلم.

امتألت أذناه بطنين خفافيش فصار يرفع يده بشكل لا شعوري كل

فترة ليستقي خطراً لا يعرف مصدره، لم تمر اللحظات ثقيلة، بل لم تمر مطلقاً... توقّف الزمن وكادت تتوقف معه دقائق قلبه ثم تسارعت الدقات وازداد الخفقان. فكّر فؤاد عبد القادر للحظات أن يستدير ويخرج من باب المبنى ويهرول هارباً، لكن إلى أين يهرب؟ ومم يهرب؟

إنه الحُدس الملعون الذي استولى عليه منذ دقّ جرس الهاتف بالمكالمة المشؤومة، وبدأ يكلم نفسه دون أن يدري: "إحساسك لا يكذبك يا فؤاد... لقد انزلت قدمك في بئر لا قرار لها".

وعملت غريزة البقاء عملها فحاول أن يطمئن نفسه.

"ما كل هذا الرعب يا رجل؟" ثم ربت يد على كتفه فانتفض كعصفور مذعور هاجمه المطر وهو بعيد عن عشه... وتفصد العرق من جبينه غزيراً بارداً. لم يكن في حاجة إلى امرأة ليرى وجهه فيها فقد رأى ملامحه في نظرة محاميه الذي اتسعت عيناه من الدهشة.

"ما كل هذا الإحساس المخيف الذي يكسو ملامحك يا فؤاد بيه؟".

وخرجت الكلمات من بين شفّتي فؤاد عبد القادر ممزوجة بالأسى والضعف: "لا أدري يا أستاذ خالد... إحساس بالخوف الشديد لم يفارقني منذ كلّمت الضابط الذي أغلق مقر الشركة... وما يزيد خوفاً أنني اعتدت ألا يكذبني إحساسي".

مدّ خالد يده في جيبه في هدوء وأخرج منديلاً جفف به عرق فؤاد بيه برقة، وأخذ يحدثه في هدوء وثقة: "اسمع يا فؤاد... نحن مرتبطان بعلاقات عمل وصداقة منذ أكثر من خمسة عشر سنة... وأنا أعرفك جيداً... كما أنني محاميك وبحكم هذه العلاقة أنا مطلع على الموقف

القانوني لكل أنشطة الشركة وهذا مطمئن... أما هو أجسك فلا مبرر لها على الإطلاق وينبغي ألا تستسلم لها".

هذا فؤاد عبد القادر إلى حد ما وبدأ يستجمع شجاعته وقال لحاميته: "اسمع يا خالد... رغم أنني لم أرتكب في حياتي عملاً غير قانوني مهما كان بسيطاً منذ أن ورثت هذه الشركة عن أبي، إلا أنني أحس بسحاب أسود كثيف يقترب مني ويوشك أن يحيط بحياتي".

قالها فؤاد وعيناه ثابتتان وغائمتان.

"هذا الذي تقول غريب يا فؤاد" وغير خالد - عمداً - نبرة صوته لتكون أكثر عقلانية: "ولكن ما علينا... اسمع يا فؤاد.. هل هناك أي شواهد تجعلك تستسلم لهذا الحذر؟".

بلع فؤاد ريقه بصعوبة ولم يجب، وبدأ خالد نفسه يتسرب إلى نفسه شيء من القلق فقال: "كمحامي ليس لدي ما أقوله... لكن كإنسان لدي الكثير لأقوله".

أمسك خالد بذراع فؤاد برفق ليستنبط شيئاً من الطمأنينة في صحراء خوفه المظلمة وقال: "العلاقة بيننا أعمق بكثير من علاقة المحامي وموكليه... وهذا الشعر الأبيض الذي نبت في رأس كلينا شاهد على هذه العلاقة... حدثني كصديق".

راح فؤاد عبد القادر في عالم بعيد وتكلم كما لو كان يصرخ من بئر عميق: "منذ أيام رأيت حلماً فظيماً كنت فيه حبيس كهف مظلم مليء بالخفافيش... كان حلماً فظيماً تكرر مرات عديدة بالتفاصيل نفسها... وصار مشهد الخفافيش وهي تلتطم وجهي يطاردني في صحوي، بل أحياناً لا يفارقي".

أخفى خالد تأثراً واضحاً بدا على ملامحه وقال: "أنت يمكن أن تكون معذوراً إلى حد ما فهذا حلم مخيف... ولكن ينبغي ألا يسيطر عليك".

"كيف لا يسيطر علي يا خالد؟ لقد سمعت أصوات أجنحة الخفافيش وأنا أدخل هذا المبنى؟".

قطع خالد استرسال الحديث وقال: "لولا ما سيطر عليك من توتر لما كان هذا المكان ملائماً لدرشة من هذا النوع".

قاطعه فؤاد بنظرة منكسرة قائلاً: "أدبك يمنعك أن تسمي الأشياء بأسمائها... ليس توتراً بل رعب.. رعب يا خالد".

"وأنا سأبدد لك هذا الرعب" قالها المحامي وهو يدفع موكله برفق في اتجاه مكتب وكيل النيابة: "لقد دخلت إلى وكيل النيابة قبل حضورك وناقشته.. بشكل ودي وعرفت أن المشكلة بسيطة بل مضحكة".

وسارا متمهلين نحو مكتب وكيل النيابة. وبلهفة من ردّ إلى الحياة من على منصة الإعدام قال فؤاد بلفهة شديدة: "أرجوك يا خالد بدون مقدمات".

"اسمع يا سيدي... اللحم البقري الذي استوردتموه أخيراً نزل الأسواق مكتوباً عليه (لحم بشري مجمد)...".

"يا همار أسود" انطلقت كالرصاصة الطائشة من بين شفتي فؤاد وتوقف بشكل لاإرادي واستند للحائط. وأكمل خالد كلامه:

"وطبعاً أثار الموضوع رعباً عند أول مستهلك انتبه للعبارة... والتقطها صحفي فكتب خيراً صغيراً في باب مخصص للطرائف، والباقي يمكن استنتاجه بسهولة، وطبعاً جهات التحقيق تشددت في إجراءاتها



بسبب حساسية الموضوع".

"الله يسامحك يا عم شفيق".

قالها فؤاد وانتقلت لهجته من الخوف للأسى المزوج بالغضب:

"غلطة غبية سوف تكلفنا الكثير".

قاطعته خالد مدفوعاً بالإحساس بضيق الوقت: "فؤاد بيه... المهم الآن إغلاق التحقيق الرسمي وطبعاً قرار الإغلاق غير قانوني لكنه صدر ليقف حالة الإثارة الشديدة التي صنعها الاهتمام الإعلامي، وكيل النيابة سيأخذ أقوالك وأقوال الخطاط.. محسن كان هنا وأرسلته ليستدعيه فوراً... التكييف القانوني لن يكون مشكلة بإذن الله رغم غرابة الموقف كله... وعموماً وكيل النيابة لا يملك حفظ التحقيق إلا بعد تقرير المعمل".

وصار وجه فؤاد كالبحر الهائج يتقلب من إحساس لآخر... وكلها أحاسيس عاصفة، وصرخ كمن لدغه عقرب: "المعمل؟!".

وأصبح الحوار بينهما كمباراة تنس طاولة متوترة سريعة الإيقاع. عاد خالد للهجة التهدة وقال: "هذه مجرد إجراءات يا فؤاد، والمنتج خرج من الحجر الصحي بمستندات سليمة".

استسلم فؤاد عبد القادر للتداعيات المتلاحقة بإحساس قدره عميق وحزين في آن، وقال بلهجة يائسة: "وماذا أيضاً؟".

فرد خالد محاولاً إضحائه: "ثم تصدر وزارة الداخلية بياناً رسمياً يوضح للناس أن ما حدث خطأ غير مقصود... وهذا طبعاً سيكون إعلاناً مجانياً لم تحلم به".

وابتلعهما الكهف...

ابتسم فؤاد ابتسامة شاحبة مغالباً مشاعره الهادرة واتجه مع خالد إلى مكتب وكيل النيابة، وبدأت أصوات مختلطة تحجب عن كل منهما صوت الآخر وفجأة وجدا أمامهما شاباً يسد عليهما الطريق ويفرض نفسه عليهما بصفاقة: "خالد بيه".

وانفتحت ناحية فؤاد عبد القادر: "أكيد حضرتته فؤاد بيه عبد القادر".

أزاحه خالد بيده وهو يكمل حديثه: "بهي الأحمدى يا أفندم صحفى بجريدة (المشهد المصرى)".

وهمس خالد فى أذن فؤاد وهما يتقدمان نحو المكتب المغلق ناصحاً بعدم الإدلاء بأى تصريحات صحفية لأى شخص فالصحافة غول يمكن أن يستلعه، وشفع خالد نصيحته بتأكيد أن هذا الصحفى بالذات هو الذى أثار كل هذه الضجة... وانفتح الباب وابتلع خالد وفؤاد إلى حيث المجهول.

لم يياس بهي الأحمدى من إمكانية الخروج من هذه القضية بخبطة صحفية كبيرة، فقبل أن يكون صحفياً هو ابن عبد الهادى الأحمدى أحد أكبر رجال الأعمال فى مصر، ويعرف كيف يفكر هؤلاء التجار وكيف يستطققهم، وماذا تخفى سراديبهم: "لولا هذا الهامى ابن الـ... ولكن لا بأس... أمامى وقت كاف حتى خروجهم من مكتب وكيل النيابة لأجمع بعض المعلومات عن فؤاد عبد القادر وشركته".

كثيرون ممن يعملون فى هذا المبنى نصف المظلم يعرفون بهي الأحمدى

صحفي الحوادث الشاطر السخي خفيف الظل، وكلها أسلحة لها مفعول السحر. حام بهي حول بعض كتبة النيابة وموظفيها فلم يخرج بشيء مفيد بسبب غرابة البلاغ، وطال بقاء خالد وفؤاد بالداخل فاحتسى بهي عدة أكواب من الشاي مضطراً، فكوب الشاي والسيجارة والإكرامية مفاتيح مهمة تجعل الأفواه المغلقة تتكلم. لم تكن المشكلة في رغبة الناس في البوح بما لديهم بل كانت المشكلة أن ما لديهم بلا قيمة.

بدأ الجوع يستبد بيهي فغادر المبنى ليتناول غذاءه وفقد حماسه للقصة كلها وقرر أن يفرك خيراً هلامياً عنها، وركب سيارته وذاب وسط الزحام.



القاهرة

لفحة حنين



دقّ جرس المنبّه وفتح بهي عينيه بصعوبة ومدّ يده إلى المنبّه ليغلقه قبل أن يغفو مرة أخرى ويستيقظ فيجد الساعة تشير إلى الحادية عشرة. رفع الغطاء عن جسده فأنعش البرد حواسه وجلس على طرف الفراش، أغمض عينيه ضاغطاً على جفونهما بقوة أملأ في مغالبة الصداع اليومي. شخصية بهي الحقيقية تبدو أكثر وضوحاً في شقته فهي ممتلئة بالأشياء الثمينة لكن دون معنى، فهو مغرم بالأشياء العابرة... الأصدقاء... الأفكار... النساء.. حتى علاقته بالصحافة التي تبدو الشيء الوحيد الثابت هي الأخرى بدأت بصدفة وما زالت علاقة هاو بهواية ممتعة.

مدّ بهي يده على الكمبيوتر المجاور للفراش والتقط الريموت كونترول وفتح التلفزيون، عبث بالأزرار حتى لفتت نظره فتاة جميلة تقدم برنامجاً رياضياً نظر بتمعن إليها... لم يكن ما لفت نظره إليها كيفية أداء التمارين الرياضية بل جسد من تؤذيها.. تحالفت الكاميرا معه فاستعرضت جسدها ببطء مثير. أطلق صفارة إعجاب مردفاً: "البرامج الرياضية تقدمت جداً!!!"

اتجه نحو المطبخ متثاقلاً.. وقف أمام الحوض المعدني نصف الممتلئ بالأواني المستخدمة.. أمسك إناءً صغيراً... سكب ما فيه من بقايا قهوة اليوم السابق.. وضع الإناء تحت الصنبور وأضاف البن والسكر دون حاجة إلى تركيز فقد اعتادت يده هذا الطقس اليومي... وضع الإناء على النار ووقف ينتظر غليانه، فالحقوة بالذات لا تحتل أي سهو في إعدادها حتى يكون لها "وش" يكمل تأثيرها البيولوجي في الجسد بالتأثير النفسي لطعم هذا الوش وسمكه.

خلال هذه اللحظات قفز إلى ذهنه منظر فؤاد عبد القادر وهو يهرب منه على باب وكيل النيابة وداخله إحساس غير مفهوم بالانتقاض:

"لا بأس.. كان يمكن أن نخرج من هذا الموضوع بخبطة صحفية.. خيرها في غيرها... ولكن لماذا تلح على ذاكرتي ملامح هذا الرجل؟ شيء ما في ملامح فؤاد عبد القادر يذكرني بشهاب علم الدين.. ياه شهاب علم الدين.. نعم.. إنني لأول مرة منذ سنوات أرى شهاب في الحلم.. الحلم..."

وحاول جاهداً أن يتذكر تفاصيل هذا الحلم دون جدوى.

فارت القهوة فاطفات الشعلة وأشعلت غضب بهي:

"يووه" قالها وصب القهوة بفتور وانحالت عليه الذكريات:

"شهاب علم الدين... ما الذي يحدث.. حادث غريب.. حلم أكثر غرابة؟".

كان فتوره لصب القهوة ساخنة في جوفه كما يفعل كل يوم باباً لدخول المزيد من الخواطر. ولأول مرة منذ أن حمل شهاب علم الدين هذا الشاب الأسمر ذو الملامح الحادة والنيرة الصادقة الثائرة حقيقته الصغيرة وغادر الشقة التي عاش فيها مع بهي سبعة أعوام لم يفترقا فيها كصديقين حميمين، ولم يلتقيا كعقلين مختلفين تمام الاختلاف، حتى أن بهي كان يشبه علاقتهما بعلاقة الاتجاهات المختلفة في إشارة مرور واحدة تجاورها دائم واختلافها أيضاً دائم.

عاد بالذاكرة أربعة أعوام للوراء وتذكر الضمة الأخيرة على باب الشقة وهو يودع شهاب بالدعاء، وتأمل حياته للمرة الأولى منذ



سنوات.. عندما قرر أن يعيشها كما هي وكما هو... علاقات عابرة...  
منبه يوقظ الجسد.. قهوة تركية غليظة القوام توقف المخ.. ضوء صناعي  
للعمل ليلاً... ستائر كثيفة ليستطيع النوم نهاراً...

"ما بالسنا نهرب من كل شيء طبيعي ونفرح بهذا الهرب فرحاً  
أبله؟".

مدّ يده إلى فنجان من الخزف صب فيه القهوة وعلى وجهه  
علامات مزاج متعكر.. وضع القهوة على منضدة أنيقة عليها زخارف  
إسلامية محفورة حفرأ غائراً. كانت القهوة بلونها البني القاتم تجعل  
الفنجان الأبيض يبدو كما لو كان حلقة بيضاء موضوعة على المنضدة،  
فاللون واحد تماماً كأن المنضدة غمست في فنجان قهوة ضخم. ترك  
فنجان القهوة وخرج من المطبخ إلى الحمام.. وفعلت "العكنة" الأكثر  
نفسه الذي تفعله القهوة، فهي أيضاً منبه قوي المفعول.

وقف أمام المرأة وركب شفرة في ماكينة الحلاقة ليحلق ذقنه، لأول مرة  
لا ينشغل بهي أمام المرأة بتهذيب شاربه وتفقد بشرة وجهه بإمعان شديد  
كما كان يفعل كل يوم. استدار وأغلق باب الحمام وخلع ملابس النوم وفتح  
الدش، فاجأته برودة الماء فابتعد بردً فعل آلي، فتح صنوبر الماء الساخن ونزل  
الماء على جسده حانياً... استسلم بسعادة غامرة وجرف الماء الدافئ في  
جريانه أحاسيس مختلطة بالتوتر والإجهاد والتشتت.. وصفا ذهنه بهي تحت  
الماء فأغلق عينيه واستسلم لخدر لذيد. أغلق الدش وخرج من حوض  
الاستحمام ونظر في المرأة وقال بصوت مسموع لصورته في المرأة:

"وما عيب الطقوس اليومية؟... إن هذا الحمام أروع طقس يومي  
عرفه الإنسان".

قهقهه بشكل شبه هستيري: "يومك أسود يا أستاذ بهي... طالما

بدأته بالتأملات فلن يمر بخير.. ولو كنت في بيت أبي الآن لوبختني أُمي  
لأنني أتكلم في الحمام".

سكت لبرهة ثم بدا كما لو كان قد انتبه لما هو أخطر:  
"أتكلم في الحمام... أليس الأخطر أنني أكلم نفسي وهذه علامة  
من علامات الجنون الرسمي؟".

ودخل هي في حوار مسموع مع نفسه:  
"وما المشكلة؟.. الجنون قرين العبقرية".  
"لا.. وهل تضمن يا سيد هي أن يكون جنونك عبقرية... الجنون  
الذي يحتفون به هو جنون أدباء الحداثة وما بعد الحداثة، أما جنونك  
فيمكن أن يكون (عباسية)".

التقط فنجان القهوة من المطبخ واتجه نحو حجرة النوم... رشف  
رشفة من الفنجان ووضعه على الكومود وعلى وجهه إحساس بالقرف:  
"قهوة بدون وش عدهما أفضل".

نظر إلى المنبه الموضوع على الكومود ووجد الساعة تشير إلى الثانية  
عشرة إلا الربع فارتدى في سرعة بملوانية ملابسه التي لا تختلف كثيراً عما  
في المكان... أشياء جميلة أنيقة لكنها كلها في غير مكانها، منزل مؤثث  
بنوق راق تنقصه اليد التي تضع الأشياء في مكانها.

هرول إلى المطبخ أغلق محبس الغاز... عاد مسرعاً والتقط أوراقاً  
متناثرة وعلبة السحائر ودسها جميعاً في الحقيبة دون تنظيم، أغلق الحقيبة  
وهو يتحرك نحو الباب والتقط المفاتيح وفتح لوحة الكهرباء وفصل  
الكهرباء عن الشقة فانطفأ التلفزيون. أغلق الباب ودس المفاتيح في جيبه  
واتجه نحو المصعد.

استقر المصعد وخرج هي في نشاط متجهاً للخروج من العمارة،  
ألقي تحية الصباح على البواب الذي سبقه إلى سيارته الصغيرة ليرفع عنها  
الغطاء... فتحت باب السيارة ووضع حقيبته على المقعد الخلفي وجلس  
خلف مقعد القيادة وأدار المحرك بينما البواب ينفذ الغبار من على  
السيارة. وفي انتظار أن يسخن المحرك أدار هي مؤشر الراديو وراح يتجول  
بين المحطات، أصوات مختلطة بين برامج أطفال وبرامج نسوية وأغاني من  
كل لون... لفت نظره صوت مذيعة تتكلم بدلال أنثوي ظاهر، ضبط  
المحطة كانت المذيعة تتحدث عن بعض الغرائب والطرائف.

انطفأت لمبة إنذار المحرك فبدأ يحرك السيارة ببطء لينبه البواب الذي  
ابتعد ملوحاً لبهي بالتحية من خلف الزجاج. خرج بالسيارة إلى الطريق  
ورفع صوت المذياع:

"أقلت الشرطة صباح أمس القبض على رجل أعمال تسبب في  
ذعر كبير بين المواطنين نتيجة خطأ طريف... رجل الأعمال استورد  
لحماً بقرياً محفوظاً ونظم حملة دعاية ضخمة لترويج المنتج الجديد،  
وعندما نزل المنتج للسوق فوجئ المستهلكون الذين تهاقوا على شرائه  
بوجود عبارة (لحم بشري مجمد) على عبوات المنتج، رجل الأعمال  
المشهور اعتذر عن الخطأ المضحك ومنتظر قرار النيابة بحفظ التحقيق  
أي أن الموضوع أصبح كله (مجمد)".

وأطلقت المذيعة ضحكة خليعة فأطلق هي عبارة فالتة: "يا بنت  
الكلب".

منحه الهدوء النسبي في الشوارع فرصة للانتقال بين محطات الإذاعة وتوزيع عبارات الاستحسان والاستهجان هنا وهناك.

من ميزات أن يعمل المرء صحفياً أن ينزل في موعد متأخر نسبياً عن موعد نزول الموظفين إلى أعمالهم فيكون مصعد العمارة خالياً والشوارع أقل ازدحاماً، ففي مدينة كالقاهرة ينتقل الناس كل الناس في موعد واحد تقريباً، ويصبحون في شوارعها كما لو كانوا شعباً بأكمله يهرب من جيش معاد.. أرتال من السيارات تندفق في كل اتجاه وصيحات استنكار.. وأحياناً سباب من نوافذ السيارات. وحافلات نقل عام مكتظة ببشر يطلّ خدر النوم من عيونهم وتطفح ملامحهم بالبؤس.. يدون في عبوسهم كأنهم استيقظوا فزعين إثر هزة أرضية أخرجت الجميع إلى الشارع. دورة جهنمية تألف الناس مع عذاباتها بصير أسطوري عصي على التفسير.

طارده الخير نفسه في محطة أخرى يذاع بصيغة ساخرة قرية من السابقة فشعر بالتقزز الشديد وسرت في بدنه قشعريرة، وبدأ يحتاجه حدس بأن هذه القصة ستعترض طريقه مرة أخرى... وفي شروده لم ينتبه إلى سيارة مسرعة تعترض طريقه وتطلق عجلاتها صوتاً حاداً يعيده إلى وعيه. تحمّل ببرود عبارات قاسية من سائق السيارة الأخرى وبعض المارة وسار في طريقه وهو يتمتم: "اليوم من أوله لا يشتر بأي خير... ربنا يستر".

عاد يهي من العمل مشتتاً فاندفع للحمام بحثاً عن الهدوء والسكينة في دفع المياه.. خرج من الحمام فاندس تحت الفراش مستكيناً ومدّ يده للرميوت كتنترول ليستدعي صديقه الوحيد... عبثت يده بالأزرار بحثاً عن شيء ممتع... ولم يجد أكثر إثارة من الإعلانات فهي في النهاية مشاهد متوالية لا يجمعها رابط، ولا تستحث العقل على التفكير في شيء ورائها. حرّك مؤشر الصوت ليخفضه وامتدت يده إلى الوجبة الجاهزة التي جلبها معه وبدأ يأكل. والتفت إلى الهاتف بجواره وتذكر أنه في الصباح خرج دون أن يفتح "الأنسر ماشين" لسمع الرسائل الصوتية.

كانت هناك رسالة صوتية واحدة تتكرر لأكثر من عشر مرات، تسنهدات نسائية حارة وجملة واحدة: "يا عم رقي.. يا سيدي ميل.. يا حبيبي ما يصحش كده".

أطربته الرسالة وشعر بزهو الانتصار: "هذه بعض خسائر التأملات.. كان يجب أن أتصل بها لأراها الليلة.. سامحك الله يا عم شهاب".

وقبل أن ييأس يهي من أن يستمع إلى رسالة أخرى في الشريط المملوء بالتنهدات جاءه صوت رئيس القسم ملهوفاً: "ألو... ألو... يهي إذا كنت في المنزل كلمني فوراً.. سأنتظر منك اتصالاً بمجرد عودتك.. مؤنس.. سلام".

اعتدل يهي في جلسته وأعاد سماع الرسالة مرة أخرى كما لو كان غير مصدق، واكتست ملامحه بجدية شديدة: "غريبة.. هذا لم يحدث منذ

أن عملت في الجريدة.. ما بال المفاجآت تتوالى في هذا اليوم الغريب!"

رفع الغطاء عن جسده وفتح حقيبتة الجلدية وأخرج منها فهرس أرقام التليفونات وعاد إلى السرير، لكن أقل استرخاء. طلب رقم مؤنس ثم نظر في المنبه الموجود على الكومود أمامه فانتبه إلى أن الوقت تأخر، لكن صوت الأستاذ مؤنس ردّ بسرعة بما يعني أنه لم ينم: "مساء الخير يا أستاذ مؤنس.. أنا آسف لأنني أطلبك في هذا الوقت لكنني لم أعد لل منزل إلا الآن".

صدق حدس بهي وكانت هناك بالفعل مفاجأة: "كنت في انتظار مكالمتك ولم أتم... مفاجأة يا بهي.. الجريدة تلقت قراراً من وزارة الإعلام بحظر النشر في قضية اللحم البشري المستورد".

وجاء ردّ بهي ملتعثاً: "قضية إيه؟... أستاذ مؤنس.. أنا نفسي كنت في النيابة وكل الكلام كان عن خطأ غير مقصود.. أصبحت الآن قضية تجارة في لحوم بشر بالفعل؟... كيف؟".

وارتفع صوت بهي منفعلاً دون أن يقصد، وأوقفه مؤنس بلهجة صارمة: "التليفون لا يصلح؟".

"لماذا؟".

"ليكن... في الصباح ياذن الله أكون عندك.. لا.. لا التاسعة ياذن الله".

أغلق الهاتف وتيقظت حواسه كلها وهو يحاول بصوت مسموع ترتيب الحوادث على نحو يعين على فهمها: "خطأ في كتابة البيانات على منجع أمر لا يتكرر كل يوم لكنه وارد.. لكن أن تتحول المرحلة التي أوردتها الجرائد والإذاعات ضمن الطرائف إلى حقيقة، فهذا غير

مفهوم.. وما كل هذا الاهتمام والحذر في حديث الأستاذ مؤنس؟". صمت لبرهة وثبتت نظرة عينيه ثم قال: "لحم بشري.. يا نهار أسود.. هذا يومك يا شهاب... كنت تتحدث عن عالم يأكل بعضه لحم بعض على سبيل المبالغة وأصبحت المبالغة حقيقة.. لكن لا.. من المؤكد أن في الأمر خطأ ما".

اختلط الفضول الذي هو مرض مهني - فوق كونه طبيعة بشرية - بالصورة التي كان شهاب يرسمها للعالم وكان يهي دائماً يراها سوداوية متشائمة.

غادر يهي الفراش وهو يتمتم: "يبدو أنه لا مفر"..

اتجه إلى الدولار وأخرج منه حقيبة قديمة تركها شهاب يوم غادر منزلها المشترك لآخر مرة متجهاً لبيروت... أوراق كثيرة لم يفكر يهي أن يقرأها أبداً، كان يخاف أن تتبدل نظرتة للعالم بفعل أفكار شهاب التي كانت.. أحياناً تبدو غريبة.. وأحياناً متشائمة.. وأحياناً حادة.. وغالباً ما تكون خليطاً من هذا كله. فتح يهي الحقيبة فوجد مجموعة من الصور تجمعها مع يهي وأخرى تجمعهما مع زملاء آخرين. تستوقفه عيون شهاب ونظرتة الواقعة.

وبدأ يتصفح الأوراق لا بحثاً عن شيء بعينه بل بحثاً عن شيء لا يعرفه.. كان يمتلئاً بالثقة بأن الأفكار التي طالما جادل صديقه فيها تحمل إجابات عن أسئلة كثيرة فشل في وأدها، أو وأدها وخرجت من تحت الرماد شاخصة تستعصي على التجاهل:

"لو جعل كل منا جلده حدود عالمه لتحول هذا العالم إلى غابة يأكل القوي فيها الضعيف.. أليس هذا كلامك يا شهاب".

وضع يمي الأوراق محاولاً وقف متوالية الانفعال والقلق التي استولت عليه بعد مكالمه مؤنس متسائلاً: "حتى لو صح ما قاله الأستاذ مؤنس بحذافيره.. هذه في النهاية جريمة فردية... ولكن.. لو كانت جريمة فردية، فلماذا كل هذا الحذر الذي أبداه إزاء الحديث في التلفون؟".

عاد يمي إلى جلسته المسترخية على الفراش وأخذ حقيية الأوراق بجواره وبدأ يتصفحها ويصنفها.. لم يكن يتخيل أن يكون شهاب شغوفاً بالشعر كل هذا الشغف... ربما لأن الشعر كان في سنوات الدراسة هو فقط ما يمكن كتابته على بطاقة تهنئة أو في رسالة غرامية لفتاة. حتى الشعر عندك له مفهوم مختلف ومذاق مختلف...

ودخل يمي لأول مرة عالم شهاب علم الدين بعد أن حاول شهاب نفسه لسنوات أن يأخذه معه فيه، دخله زائراً مستكشفاً، فاكتشف أن الكثير مما كان يقوله شهاب عن المسؤولية الإنسانية الأخلاقية إزاء العالم أمر بديهي، وأن الكثير من الأفكار من كثرة ما تلو كها الألسنة في صياغات باهتة تفقد حرارتها.

لم ينتبه يمي إلى أن النهار قد أشرق منذ أكثر من ساعتين إلا عندما دق جرس الهاتف ورفع السماعه ليجد الأستاذ مؤنس على الطرف الآخر: "صباح الخير يا أستاذ مؤنس".

ونظر في الساعة فوجدها تشير للثامنة صباحاً. أكمل المكالمه بردود مقتضبة ووضع السماعه. اتجه للنافذة وأزاح الستائر عنها ولم يدهشه منظر الكون في هذه الساعة رغم أنه لم يره منذ سنوات اختلف فيه إيقاعه عن الإيقاع الكوني الطبيعي، بقدر ما أدهشه أن يقضي كل هذه الساعات مستيقظاً دون الاستعانة بفناجين القهوة ذات القوام الغليظ.

انكسرت حلقة الطقوس الصارمة من حوله في لحظة.. وشعر أنه



أخف وأكثر حرية... انطلق إلى الشارع حاملاً حقييته بعد أن ارتدى  
ملابسه دون أن يشعر تقريباً، وترك سيارته حتى لا يضطر لانتظار أن  
يسخن الموتور، وهرباً من أن يستجمع تركيزه المشتت ليقود السيارة في  
شوارع القاهرة في ساعة من أقصى ساعات الذروة. اتجه البواب إلى  
السيارة ليرفع عنها الغطاء ولكن لم يردّ تحيته، بل لم يره... واتجه  
للشارع. أوقف سيارة تاكسي وركب دون أن يشرح للبواب معنى التغيير  
في الموعد والطقوس. وانطلقت السيارة تقطع الشوارع المزدحمة، بينما لم  
الأحمدي يتحوّل فضوله بالتدريج إلى قلق.

انطلق بهي كالسهم داخلاً مبني الجريدة دون أن يتوقف للتوقيع أو ردّ تحية موظف الاستقبال، اتجه مباشرة لمكتب مؤنس وكانت لهفته لمقابلته لا تقل عن لفظة مؤنس: "من المؤكد أنك دعوت علي لأنني أيقظتك مبكراً علي غير عادتك" قالها مؤنس متلطفاً.

"أنا لم أتم يا أستاذ مؤنس.. وأرجوك أن تشرح لي ما حدث دون أي مقدمات أو إبطاء".

بدأ بهي حديثه من على باب الغرفة وأطاح بحقيقته بعيداً بغير اكتراث وجلس متحفزاً أمام مؤنس:

"أنا غادرت النيابة بالأمس وفؤاد عبد القادر ومحامي عند وكيل النيابة.. ولما تأخر خروجهما ذهبت لتناول الغداء ونسيت الموضوع كله وعدت للمنزل في المساء... فما الذي حدث منذ غادرت النيابة حتى الآن؟".

وبدأ مؤنس حديثه وبهي منتبه بكل حواسه: "وكيل النيابة كان متجهاً لحبس فؤاد عبد القادر على ذمة القضية أولاً لأنها قضية رأي عام.. المحامي أصر على اعتبار الأمر مجرد خطأ في كتابة البيانات، وبالتالي حدث بحسن نية، لكن تقدير حسن النية في نظر وكيل النيابة كان متوقفاً على نتيجة تقرير العمل، وطبعاً أي وكيل نيابة تكون أمامه قضية رأي عام يتصرف فيها بيد مرتعشة ويميل للتشدد".

اعتدل بهي في جلسته وقال: "طبيعي.. حتى الآن لا مشكلة".

مدّ مؤنس يده لعلبة السجائر الموضوعة أمامه وأشعل سيجارة وأشار

لبيهي بواحدة فأخذها دون تعليق ومونس يستمر في السرد: "محامي فؤاد عبد القادر طلب من وكيل النيابة الإفراج فرفض، وثار نقاش قانوني انتهى إلى ضرورة الحصول على تقرير المعمل أولاً... وبدأ فؤاد ومحاميه اتصالات على أعلى مستوى، لأنهما اعتبرا أن حبس فؤاد على ذمة القضية إساءة لشخصه ولشركته".

وأراد بمي أن يقاطعه فأشار إليه مونس بيده وأكمل: "أرجوك.. اسمع أولاً.. في النهاية تم الاتفاق على إجراء تحليل أولي في اليوم نفسه على أن تستكمل التحليلات بعد صدور قرار الإفراج عنه، قبل الطرفين هذا الحل الوسط، وكانت كل الأطراف تعتبر نتيجة التحليلات تحصيل حاصل.. المفاجأة كانت أن نتيجة التحليلات المبدئية سلبية وأكدت وجود بقايا لحم بشري في المنتج الذي يستورده فؤاد عبد القادر".

ولم يستطع بمي أن يكتم حيرته واستغرابه لما يسمع فقاطع مونس: "ولكن فؤاد عبد القادر ومحاميه ليسا ساذجين ليطلبا هذه التحليلات إلا إذا كانا متأكدين من سلامة موقف فؤاد القانوني، كما أن فؤاد عبد القادر ذهب للنيابة بنفسه ولم يقبض عليه، كان أمامه فرصة كافية للهرب لو أراد".

تصرف مونس كما لو كان يتجاهل محاولة بمي لإخضاع ما حدث للتحليل المنطقي وألقى قبلة أخرى: "فؤاد عبد القادر أصبح خارج الموضوع تقريباً.. وربما بشكل نهائي".

وبدا الأمر أكثر استعصاء على الفهم بالنسبة لبيهي فقال: "هذا أغرب.. كيف وهو المستورد؟.. إنه المسؤول الأول".

عاد مونس لسرد الأحداث في تتابعها المثير فقال: "فؤاد عبد القادر

أصيب بانفجار في شرايين المخ بمجرد علمه بنتيجة التحليل.. وهو الآن في المستشفى في غيبوبة تامة".

وألحت على بي فكرة المؤامرة بشكلها الساذج وقال: "وهكذا تدفن معه الحقيقة... ربما كان مجرد ضحية في لعبة أكبر منه؟".

"فؤاد عبد القادر لم يعد المشكلة.. والخيط التي ظهرت خلال ساعات عقدت الموقف بدرجة لم تكن متوقعة".

وتساءل بي: "أية خيوط.. هل هي رواية بوليسية يا أستاذ مؤنس؟".

واستطرد مؤنس: "النتائج لخطورتها الشديدة قبل إبلاغها للنيابة العامة تم إبلاغها لجهات عليا.. ويبدو أن هناك من تبرع بإبلاغ سفارة فرنسا التي دخلت الخط بسرعة طالبة وقف النشر عن الموضوع".

وألحت الأسئلة على بي فقاطع مؤنس من جديد: "فؤاد عبد القادر استورد المنتج من تايلند فما دخل فرنسا؟".

"هذا مربوط الفرس" قالها مؤنس وتنهد وبدأ يتكلم بلهجة أقل إثارة مشيراً يديه على سطح المكتب كما لو كان خريطة مرسومة: "المنتج المستورد تنتجه شركة فرنسية عابرة للقارات وأسمائها فرنسي وإدارتها في بيروت ومصانعها موزعة في عدة دول منها تايلند.. لكن العلامة التجارية فرنسية والشركة تعتبر تايلند مجرد مكان ملائم للتصنيع والتغليف بسبب الأيدي العاملة الرخيصة والتسهيلات القانونية".

وانتبه بي متأخراً جداً إلى أن ما توفر لمؤنس من معلومات غزيرة عن موضوع كهذا محظور النشر فيه هو الآخر غريب فقال: "ومن أين لك كل هذه المعلومات الدقيقة في هذا الوقت المحدود؟".

ابتسم مؤنس وقال: "سؤال مهم لكن الإجابة عنه تأتي بعد

إطلاعك على بقية التفاصيل". واستطرد مؤنس: "... حظر النشر يعني حظره في مصر فقط، وهو سيدفع الناس للبحث عن الحقيقة في الشائعات.. الأرجح أن تنتهي الدعوة القانونية بموت فؤاد عبد القادر.. أو بالعفو عنه لأسباب صحية ليس هذا هو المهم".

وتساءل يحي في هدوء أحدثته الصدمات المتوالية: "فما المهم إذن؟".

واكتسى صوت مؤنس بنبرة حماسية واضحة وانتقل من على مكتبه ليجلس بجوار يحي وقال: "المجد المهني... وهذا يتصل بسؤالك عن مصدر معلوماتي، فهناك جهات عديدة منافسة لهذه الشركة، ومنها شركة عابرة للقارات أميركية الجنسية قررت تمويل إفاد صحفي لجمع معلومات عن الأمر، وسيكون الاتفاق من خلال وكالة أنباء عالمية تنشر سلسلة من التحقيقات المصورة عن حقيقة القصة المثيرة في صحف عديدة بلغات مختلفة.. أنا لا أستطيع السفر بنفسني لأنني مثقل بارتباطات عائلية ومهنية.. كما أن هذه المهمة تحتاج إلى شاب طموح مثلك... وقد رشحتك للسفر... على أن أقوم أنا بتوفير معلومات من مصادر أخرى وأتولى صياغة المادة وإعدادها للنشر.. و...".

ووصل العرض المغربي للحظة الذروة: "والمكافأة المقترحة عشرون ألف دولار غير مصاريف السفر والإقامة... والمكافأة ستكون مناصفة بيننا".

لم يفشل مؤنس في إثارة فضول يحي وحماسه، لكنه كان على المستوى الشخصي على أعتاب تحول حقيقي جعله يفكر لأول مرة في حياته أن يتصرف انطلاقاً من استشعار مسؤولية أخلاقية وإنسانية، صحيح أن العرض المغربي الذي يقدمه مؤنس هو في النهاية جزء من

آليات المنافسة الاقتصادية الشرسة التي لا قلب لها ولا أخلاق، لكن بإمكانه أن يحقق أهدافاً يراها نبيلة ولا تتعارض مع أهداف ممولي المشروع.

أسباب كثيرة جعلته يعرف قيمة الصمت والتروي بعد أن كان مثلاً للسرعة في الفعل وردّ الفعل والانفعال، يتكلم بسرعة.. يجب بسرعة.. يشتهي بسرعة.. يمل بسرعة.

وطال صمته على غير المتوقع فباغته مؤنس بسؤال: "هل أنت خائف يا بهي؟".

وخرج ردّه واثقاً: "إطلاقاً... ولكن الأمر كله مفاجأة كبيرة ومربكة..".

ركّز بهي نظره على النافذة المفتوحة خلف مؤنس للحظات كأنه يقرأ خلالها: "أنا موافق... ما المطلوب؟".

ابتسم مؤنس ابتسامة المنتصر وقال: "أرسل إليّ بالفاكس الصفحات الأولى من جواز السفر وسأتولى ترتيب كل شيء".

نُضِ بِمَهِ وَحَمَل حَقِيَّتَهُ وَغَادَرَ الْحَجَرَةَ وَهُوَ يَلْتَفِتُ إِلَى مُؤْنَسَ: "خلال ساعة على الأكثر تكون عندك... وطبعاً ستكون هناك جلسات قبل السفر للإعداد".

واختفى بهي سريعاً.

أسبوع عصيب مر على مهي غير فيه جلده تغييراً كاملاً.. كان لديه قناعة راسخة بأن خيط البداية هو في أوراق شهاب علم الدين، فصحافة الفهلوة التي مارسها لسنوات لم تمنحه الإثارة التي كان يحلم بها، وكان دائماً يشعر أن ما بها إثارة "مغشوشة" تعتمد على سعة خيال الصحافي... على قدرته على تليفق ما يشعر القارئ بشعور زائف بالاندهاش لا على اكتشاف ما يدهشه فعلاً، بل أحياناً كان يشعر أن المزيد من الإثارة يتطلب بالضرورة القليل من رقابة الضمير و... "أعذب الشعر أكذبه"، تلك كانت من العبارات النادرة التي تعلّمها من شهاب وحفرت في ذاكرته، لأن تجربته الصحفية علّمتها أنها قاعدة ذهبية في الممارسة الصحفية في مصر، ولولا يقينه بأن العرب الجاهليين لم يعرفوا الصحافة، لظن أنها قاعدة مهنية حرّفها الرواة.

غرق مهي الأحمدي في أوراق شهاب علم الدين فابتلعت وفتحت مسام عقله لشبق ضخّم للمعرفة. كان السفر مغامرة مهنية للبحث عن المتاعب والمال والشهرة وأصبح لفحة نارية من الحنين أحرقت العاشق الذي دخل عالم العشق ببراءة ساذجة كبراءة الفراش. اختار مهي في لحظة واحدة أن يحرق جسر التهديدات الذي التهم أكثر من عشرة أعوام من عمره، وأن يعبر جسر القلق الذي فتح باباً للمجهول والخطر وربما الموت...

أمده مؤنس بأوراق مترجمة ترجمة عجلى عن الشركة الفرنسية وتنقل بين هذا الملف الصغير وبين أوراق شهاب، شيء ما بدأ يربط

بينهما لا يدركه على وجه الدقة، وينتبه هي في برقة حدس مفاجئة إلى وجود هذا الخيط الدقيق بين أوراق شهاب والملف الذي أعطاه إياه مؤنس.

وبدأ يبحث في أوراق الشركة الفرنسية التي استورد منها فؤاد عبد القادر صفقته المشؤومة، اسم الشركة: سامبل إتش كي (SAMBL.HK.) أسسها عام 1890 مجموعة من الشركاء بينهم الجنرال سانت أرنو أحد قادة الجيش الفرنسي المتقاعدين. تولى رئاستها عام 1911 ابنه بيير، وتحت رئاسته توسعت أعمالها خارج فرنسا. ومنذ تولى رئاستها جورج بيير دي سانت أرنو عام 1955 وهي تدار من بيروت حيث اختار جورج أن يعيش.

"ليس مجرد قائد عسكري متقاعد ضمن مجموعة مستثمرين إذن".

تمتم هي الذي أصبح دون أن يشعر يرى العالم يعيون شهاب علم الدين: "إنها ثكنة عسكرية فرنسية واصل قادة الاستعمار الفرنسي في الجزائر من خلالها حربهم لكن بطريقة أخرى، وفضلوا التوقيع بالأحرف الأولى، فاسم الشركة مكوّن من الحروف الأولى من أسمائهم".

ومرت أصابعه على أسماء الجنرالات/المستثمرين منتقلاً بين الملف الذي أعطاه إياه مؤنس وبين الكتاب الذي تركه شهاب علم الدين مخطوطاً، ولم يكن الاختلاف إلا في ترتيب الأسماء:

جي بليسيه

سانت أرنو

دي شانجارييه



إم هيريسون

جحي مونتانياك

إي لاموريسير

أر كافينياك

شعر بي أنه أمام جبل جليد عائم لم تكن تبدو منه إلا قمته الطافية على وجه الماء... جبل جليد ضخيم يكتسح كل ما يواجهه بلا رحمة... ألقى الأوراق وفتح حقيبة شهاب كالجنون.. أزاح الصور وقصائد الشعر بعيداً، وبدأ يقلّب في مسودة كتاب كان شهاب مشغولاً بإعداده قبل أن يتخذ قرار السفر لبيروت "فرنسا في الجزائر: رسائل الجنرالات والجنود".. لم يكن في حاجة للبحث كثيراً فشهاب كان يعرفهم ويطاردهم ويجمع أدلة إدانتهم، حتى قبل أن يرتكب العم شفيق خطأه الذي نزعت صدفته القناع عن عالم بأكمله.. إنهم جنرالات الحرب الفرنسية السابقين في الجزائر.

تسرّ بي على السرير وجاءه صوت شهاب محتثاً بعيرة بكاء حار: "كتب الكونت ديريسون في خطاب إلى ذويه: لقد كان الزوج من آذان الوطنيين يساوي عشرة فرنكات.. لقد عدنا ومعنا برميل مليء بآذانهم التي قطعناها من الأسرى"...

وكتب مونتانياك: "لقد قطعت رأسه ومعصمه الأيسر ووصلت برأسه مثبتاً على رمحي ومعصمه عالق ببندقتي وقد أرسلته إلى الجنرال باراجوي الذي كان يعسكر بالقرب منا، وإنك لا تتخيل كيف كان ابتهاجه بذلك، وكنت أحياناً أفرّج همومي بقطع الرؤوس لا رؤوس الصبار بل رؤوس الرجال".

وكتب الجنرال سانت أرنو في خطاب إلى زوجته "إن بلاد بني منصر بديدة وهي من أجمل ما رأيت في أفريقيا، فقراها متقاربة وأهلها متحابون، ولقد أحرقنا كل شيء ودمرنا كل شيء... الحرب!! الحرب!! أواه منها ما أكثر من هلك فيها من نساء وأطفال هاجروا إلى جبال الأطلسي فقصوا نجبهم فيها بين ثلوجها بتأثير البرد والبؤس... إني أفكر فيكم جميعاً وأكتب إليك يحيط بي أفق من النيران والدخان، لقد مررنا عند قبيلة اليراز فأحرقت أفرادها جميعاً ونشرت حولها الخراب، وأنا الآن عند السنجاد أعيد فيهم الشيء نفسه ولكن على نطاق أوسع، لكأني في سرداب تكثر فيه الخيرات".

وفي رسالة أخرى يقول: "ما أجمل أشجار البرتقال التي سأعمل الآن على اقتلاعها، إني أنشر اليوم الحرائق في ممتلكات ابن سالم وقراه".

أصبح الفراش الوثير أقرب إلى قنفذ ضخم... تقلّب هي... وتزاحمت الأفكار والمشاعر واستسلم لعالم الدم الذي دخله على غير موعد، هو الذي فرّ من عالم اليزنس مع أبيه بحثاً عن مهنة أكثر بريقاً وإنسانية، قادته تداعيات هذا اليوم العجيب إلى عالم من الأساطير المرعبة يقود بعضها إلى بعض. ورغم أن عالمه كصحفي هو ما يحدث الآن إلا أنه لم يستطع منع نفسه من الإمساك بالخيط الذي عثر عليه في أوراق شهاب، ومن الواضح الآن أنه خيط متصل يجمع سانت أرنو وحفيده جورج بيير دي سانت أرنو.

دقّ جرس الهاتف فتذكّر هي أنه ينتظر مكالمة مهمة من مؤنس.. تبدّد إيقاعه القديم، لم يعد ساجحاً في فراغه المتختم بمشاغل وهمية وأشياء تافهة عارضة.. أصبح أكثر انشغالاً لكن أكثر سكوناً و يقيناً. كان

مونس يتصل به ليطمئنه على تأشيرة السفر لباريس...

رفع يمي السماعه بلهفة وجاء صوت مونس خفيضاً محبطاً يخلو من الإحساس الغامر بالإثارة الذي طالما شاع فيه طوال الأسبوع الماضي: "أهلاً يا أستاذ مونس.. هل هناك جديد..".

صمت يمي وهو يسمع عبارة طويلة من مونس قبل أن يقاطعه قائلاً: "أياً كان الأمر سأسافر على نفقتي".

"... لا داعي للاعتذار يا أستاذ مونس، أنا أقدر حساسية الموقف".

وضع يمي سماعة الهاتف وأغلق مصباح الغرفة.. واكتفى بمصباح جانبي صغير وأزاح الأوراق الخاصة بالشركة، وغطى جسده بغطاء خفيف ومدّ يده في حقيبة أوراق شهاب التي خرجت من الدولاب لتصبح جزءاً من حياة يمي بشكل دائم.. وأخرج من الحقيبة شريط كاسيت احتفظ به منذ أن غادر شهاب الشقة.. لم يفكر قبل هذه الليلة في الاستماع إليه.. كل ما يذكره أن هذا الشريط سجل عليه شهاب بعض أشعاره بصوته وتركه في الحقيبة... مجرد تذكّار.. كان في حاجة حقيقية لأن يستعيد صوت شهاب علم الدين حقيقياً طازجاً لا من خلف حُجُب التذكّر.

وضع الشريط في جهاز التسجيل وضغط على زر التشغيل...  
أغمض عينيه وجاءه صوت شهاب واضحاً صادقاً:

بيروت سيّدّة

تعطّر مفردات قصيدي

وتنام فوق دفاتر الذكري

إذا ملّت عيون التاكلات من البكاء

...

بيروت

يا أجهل الأحلام في صحو وفي نوم

ويا شرف القبيلة

يا جرحنا الدامي وطفلتنا الجميلة

أحرقت أطفال المخيم كلهم

من أجل من؟

وسرقة خارقة البلاد

وشارة اللقيا

وأغنية الوطن

وتركتنا جزراً مشتتة

وأحرقت السفن.

**بيروت**

**.. ونعطرنا للموت**



لم يكن مطار بيروت مفتوحاً فاضطرّ إليّ الأحمدى للسفر جواً إلى دمشق ليسافر منها إلى بيروت براً، وكان الإجراء الاحترازي الوحيد الذي استطاع اتخاذه أن يسافر صباحاً بحيث يصل إلى دمشق بعد الظهر ويستطيع السفر منها ثمّاراً. ركب الطائرة حاملاً عدداً من مجلة لبنانية استلها من بين أوراق شهاب آملاً أن يكون فيها أية معلومات مهما كانت سطحية عن هذا البلد الذي يزوره للمرة الأولى، وقد اجتهد خلال الساعات الأخيرة قبل السفر أن يستعين بما استطاع من نصائح الناصحين وخبرات المحرّين، إلا أنه لم يظفر إلاّ بتحذيرات ومعلومات مبتورة يشفعها أصحابها بعبارة: "هذا طبعاً قبل الحرب الأهلية أما الآن فلا أعرف ما الذي تغيّر".

استقرّ إليّ على مقعده وركّز عينيه على المشهد خارج الطائرة وتلاشت التفاصيل من حوله... كان التغيّر الأكثر عمقاً فيّ هيّ تحوّل من الأشياء إلى الأفكار... عاد بالذاكرة سنوات للوراء عندما غادر شهاب علم الدين الشقة لآخر مرة حاملاً حقيبتة الصغيرة مسافراً إلى بيروت. اختار أن يذهب إلى الخطر بنفسه:

"فات أوان النقاش يا هي... وسيأتي يوم تعرف فيه أنني كنت على صواب" جملة ختم بها شهاب محاورات طويلة... كان واضحاً أمام إصراره أنّها مناقشات لا طائل من ورائها.. ولكن العبارة تبدو الآن وهي ترن في أذنيّ هيّ كما لو كانت تيممة خفية علّقها شهاب على الباب ولم تخلع رداء تخفيها إلاّ الآن.. فهو يقرأها ويسمعها، إنّها تتحداه وتناديه في

آن واحد.

"أي صواب؟" قالها بضيق وهو يحتضن صديقه الأثير لمرة قد تكون الأخيرة وهمس شهاب في أذنه: "أعرف يا بهي أن فيك نبلاً ونقاءً سأفتقدكما كثيراً".

اهتزت الطائرة في صعودها فانتبه بهي وأدار وجهه عن النافذة وقال بصوت خفيض تعتصره المرارة: "كيف يفقد العالم بهجته وجماله هكذا في لحظة... كيف يبدو وحشياً قاسياً هكذا بلا أفتعة؟".

اصطدمت عيناه بفتاة جميلة شقراء جلست بجواره دون أن يشعر وهو في شروده القصير... استيقظت حواسه فشم العطر الأنثوي المثير... وجمال يبصره من خصرها الذي يحيط به حزام الأمان إلى ساقها البيضائين المشربين بلون وردي شفيف، واستدار كأن شيئاً لم يكن. كانت مثل هذه المصادفة في وقت آخر كفيلة بأن توقظ القناص القابع في أعماقه... لكنه فجأة فقد كل مواهبه في القنص والصيد ونسي نصب الفخاخ.. وهكذا الإنسان إذا زهد فلم يرَ في فريسته إلا قطعة لحم:

"أه... كم أصبحت هذه الكلمة مرة!!".

كان مشهد الأثني يبعث في نفسه بحجة ونشوة سحريتين... ولأول مرة يشعر أن النزال حُسم لصالح شهاب علم الدين.. حسمه وهو غائب عن ميدان المعركة بالضربة القاضية. لكن المهزوم هذه المرة لم يشعر للهزيمة بمرارة، بل كانت ميلاداً جديداً.. ولكل ميلاد مخاض.. ولكل مخاض ألم.



لمسته رفيقة الرحلة الشقراء برفق والتفت إليها فوجد المضيضة تدفع أمامها عربة الطعام وتسال بابتسامة اعتادت أن ترسمها لكل مسافر، قابتسامات المضيفات جزء من خدمة السفر وهي الأخرى مدفوعة الثمن. غيّرته المضيضة بين اللحم والدجاج فامتعض لأن كلمة "لحم" أصبحت كالوخز المؤلم في جنبه:

"دجاج".

قالها ولم يزد، ومدّ يده ليفتح طاولة الطعام المثبتة في المقعد. تناول الوجبة في فتور وازدردها كأنه يتلع حجارة... لم يغره التغليف الأنيق، ولم يجبره جوعه الذي فرضه عليه تعجّل الساعات الأخيرة قبل السفر على أن يأكل بشهية. كان يحتاجه إحساس بأنه يمر بتجربة روحية كتلك التي رواها له شهاب أن الفيلسوف المسلم الكبير أبو حامد الغزالي مرّ بها قبل أن يدوّن كتابه الشهير "المنقذ من الضلال".

"لك الآن أن تمسأ يا شهاب.. فكل ما كنت أسخر منه في حواراتنا معاً وأنا سعيد بجهلي هو الآن شوك في حلقي".

ومنحته النعومة الشديدة التي تتحرك بها الطائرة فرصة للتذكر:

"هل تعرف شاعراً اسمه صلاح الدين عبد الله؟".

"لا.. لم أقرأ في الشعر الجاهلي".

قهقه شهاب حتى استلقى على ظهره:

"كيف يكون جاهلياً واسمه صلاح الدين عبد الله؟".

"أنت دائماً تأتي بأسماء غريبة وأفكار أغرب كأننا نعيش في عالمين

منفصلين".

"تقول هذا ونحن ننتمي لجيل واحد ونسكن شقة واحدة؟.. بينما المسافات لم تعد تعني شيئاً... فالحضارات تداخلت والعصور أيضاً، وهذه الحقبة من التاريخ البشري أشبه بمتحف مفتوح للتاريخ الإنساني بعصوره المختلفة... فهناك حضارات وأفكار تعبر حاجر الزمان والمكان وأديان تتصارع وتتجاوز و...".

وقاطعه بمي باعتراض صاحب:

"ما كل هذا يا عم شهاب حضارات ومتاحف وسلاحف.. يا عم أنا آسف لك ولشاعرك العظيم... يا نهار أسود.. قل لي من هو صلاح هذا وارحمي".

"صلاح الدين عبد الله شاعر مصري كفيف لم يرَ الدنيا بعينه فأبدع في تخيلها، كتب رباعيات مبدعة بالعامية المصرية يقول في إحداها:

أنا عمري ما شربت الخمرة

هاتقوللي عفة؟

ها أقولك لا

لكن أخاف أسكر مرة

أغلط وأنطق كلمة حق".

اختلطت الأزمنة والأشياء وصارت الأفكار خارج نطاق السيطرة فاستسلم بمي لحالته وتمتم: "أكيد يا عم شفيق أنت أيضاً تخلّيت عن حذرك وشربت خمراً فأخطأت ونطقت كلمة حق... لكن كلمتك لم تسبب إلا في شقائي أنا".

لم يكن يهي في حاجة إلى سماع تنبيهات طاقم الطائرة عن ربط الأحزمة وفكّها، فمنذ أن ألقى جسده على المقعد وحزام الأمان مربوط، وليته وجد وسيلة ليربط عقله داخل حدود مشهد الطائرة زماناً ومكاناً... لبت حزام الأمان كان يستطيع. عندما اقتربت الطائرة من الهبوط كان يشعر أن جسده مشلول، وجرب بنفسه ما كان يسمعه من شهاب عن الزهاد الذين يعزفون عن الدنيا حتى يتخلصوا من عبء أجسادهم على عقولهم وأرواحهم..

كانت الكلمات أكثر صدقاً وجدية مما يظن، فبسكون جسده صار عقله يغلي كالمرجل ويضطرب كالمصروع، وكم مرة تمنى أن تطاوعه دموعه في هذه الأيام العصيبة فيبكي وهو يسمع صوت شهاب:

"البكاء شيء نبيل يا يهي".

"عرفت يا شهاب لكن متأخراً... عرفت أنني عشت أعواماً أفر من إنسانيتي.. وأني أدمنت مخدرات رخيصة.. أتألم الآن ألماً بشعاً وأنا أحاول تخليص جسدي منها.. واضح أن النبل خمسة أحرف نستطيع أن نطقها بسهولة أما أن نمتلكها ف...".

انفتحت خزائن الحقائق ولم يعد الوقت مناسباً لا للتأمل ولا لتمني البكاء.

فتح يهي الحزام وسار في الممر الطويل بين المقاعد... أنهى إجراءاته تقريباً دون أن ينبس بكلمة... وخرج من صالة الوصول يبحث عن سيارة تاكسي. اقتربت منه إحداها وأسند يده على الباب المجاور للسائق، وسأله: "بيروت" رmqه السائق بنظرة متسائلة وتردد قبل أن يرد: "مشوار صعب يكلفك...".

وقاطعه يهي وهو يفتح الباب الخلفي ويضع حقيبته: "المهم أن نصل

قبل أن يحل الظلام".

والتقت نظرهما في مرآة السيارة: "الطريق ليس طويلاً، المشكلة في الحواجز الأمنية... وسأوصلك لأقرب مكان ممكن... وإذا كان هناك اشتباكات أو...".

وردة هي باقتضاب وهو يضغط على الحروف: "المهم أن نصل قبل أن يحل الظلام".

وطبعاً لم تكن هناك فرصة لأن ييدي أي تأفف من حالة السيارة العتيقة ولا لأن يقارنها بسيارته الجولف الأنيقة التي أهداها له أبوه في عيد ميلاده قبل الماضي.

استقر هي في المقعد الخلفي وفتح حقيبة اليد التي يحملها وأخرج منها مجلة لبنانية ليتصفحها هرباً من طوفان الأفكار المتزاحمة وبحناً عن أية معلومة يمكن أن تفيده، وبين صفحات ممتدة من البكائيات على بيروت المحطمة توقّف أمام شهادة عن مجزرة صبرا وشاتيلا... الشهادة كتبها دونالد فاجنر أميركي عضو مجلس الكنائس الأميركي، وانفصل تدريجياً عن السائق والسيارة والطريق:

"دخلت المخيم... كان على يساري مبنى سكني من ثمانية طوابق يستخدم مركزاً إسرائيلياً للقيادة ويمكن من خلاله مراقبة منطقة واسعة، وبالفعل كان هناك جنديان من جيش الدفاع الإسرائيلي يحملان نظارات معظمة ويراقبان المنطقة... في العشرين من سبتمبر وبعد رحلة طويلة إلى بيروت الغربية كنت أنا واثنين من أعضاء إحدى المنظمات المسيحية الأميركية، قد سمعنا بالمذابح التي حدثت في مخيمات اللاجئين، وكنت أسير في طريق كورنيش المزرعة وكأني أسير في

شوراع درسدن بعد الحرب العالمية الثانية، فالمنزرة الممتلى بأشجار الصنوبر كان يحمل آثار القصف المكثف حيث كانت الأشجار محطمة ومحرقة، وفي يوم الحادي والعشرين سمعنا ورأينا في المخيم ما يعجز لساننا عن وصفه!!".

وأحس بهي الأحمدى أنه أصبح محاطاً بجبال من الأشلاء الآدمية تمتد من مكتب فؤاد عبد القادر إلى قلب بيروت ومن يدري إلى أين تمتد أبعد من ذلك، احتلس نظرة للطريق وعاد إلى التركيز في الجملة:

"كانت مجموعة من فتيان الكشافة اللبنانيين يحملون جثث القتلى على نقالات وتولى أحد البلدوزرات إهالة التراب على بعض الجثث الأخرى فيما يشبه المقبرة الجماعية... وقبل أن نتقدم كثيراً داخل المخيم كانت رائحة الجثث المتعفنة تجبرنا على تغطية أنوفنا وأفواهنا بالناديل".

وأحس بهي كما لو كانت رائحة الجثث المتعفنة تهب من سطور الجملة وتزكم أنفه فرفع عينيه عن الجملة بحركة لإرادية مقترباً بأنفه من النافذة كمن يبحث عن نسمة هواء نقي، وأخذ نفساً عميقاً.

بدأ السائق يبطئ السيارة ونظر إلى بهي طالباً منه إن كان معه شيء يريد إخفائه أن يخبره ليتولى أمره لأنهما يقتربان من المنفذ الحدودي، وابتسم بهي ابتسامة مفعمة بالمرارة:

"اطمئن ليس معي أي شيء من هذا النوع"، "ابق إذن صامتاً ودعني أتصرف"، ردّ السائق وهو ينظر للمنفذ نظرة متفحصة.

لم يكن المنفذ الحدودي مزدحماً لكنه كان مخيفاً فالكل متوتر، وكم الجنود المسلحين أكبر بكثير مما توقع بهي. مدّ السائق يده في تابلوه السيارة

وأخرج عليّتي سحائر مستوردتين وضعهما أمام الزجاج الأمامي للسيارة وطوى ورقتي عملة من فئة العشرة دولارات بعدها أشار بهما بوضوح لبهي ليعلم أنهما سيضافان إلى الأجر الذي سيدفعه لأنهما جواز المرور الحقيقي... أوقف السيارة ونزل ملوحاً لأحد الضباط:

"كيفك أبو نزار" واحتضنه ودسّ النقود في جيبه بشكل جعل بهي يشعر بالرعب، فلم يتخيل أبداً أن تكون الرشوة في مكان حساس كهذا نصف علنية كما يرى وعلى الحدود بين دولتين إحداها تحترق في آتون حرب أهلية... تخيل للحظات أن يصبح في لحظة متهماً بجرمة رشوة في بلد غريب وفي هذا الظرف الحساس، وأعانه على استعادة توازنه سريعاً تذكره كوب الشاي والسيجارة والبقيش التي طالما فتحت أفواه موظفي النيابة المغلقة.

ابتعد الصوت وبهي يراقب حديثهما ثم صافح السائق ضابط المنفذ الحدودي وعاد إلى السيارة وقادها ببطء ليقترّب منه جندي الجوازات ودوّى صوت السائق: "توصيلة عائلية... ابن خالي".

ومدّ يده بعليّتي السحائر للجندي الذي ختم الجواز دون أن يقرأ بياناته بينما اثنان من الضباط يستلقيان في استراحة المنفذ أمام التلفزيون ودخان الحشيش يتصاعد كثيفاً من النافذة متحدياً دهشة بهي الذي عاد لصفحات المجلة دون تعليق.

بينما كانت تتوارى شيئاً فشيئاً ملامح المنفذ الحدودي بألوانها القائمة، كان السائق يستطرد في سرد قدراته الخارقة على اجتياز المنفذ دون أية إجراءات متحدياً "شطارة" المصريين... وبهي يعود بالتدريج لاسترخائه وعالم الأسئلة والذكريات والمواجس بعد أن راحت السكرّة

وجاء القصف والخطر والموت دون قناع.

بعد زمن لم ينشغل بهي بتحديد توقيف السائق واستدار داعياً بهي للنزول، فحمل حقيته ودسّ في يد السائق أجراً جعله يقفز فرحاً بينما بهي يتحرك مبتعداً عن السيارة، كما لو كان يعرف وجهته والسائق يناديه بصوت عالٍ: "لا تبتعد عن هنا يا أستاذ... من هذا الميدان يمكنك أن تجد سيارة توصلك".

توقف بهي بعد خطوات قليلة ولم يطل انتظاره فعرف سائق تاكسي لبناني كهمل بخبرته أنه ضيف لا يعرف بيروت...

فتح بهي الباب ووضع حقيته على المقعد الخلفي وجلس بجوارها، كان يخشى أن يضطره جلوسه في المقعد الأمامي بجوار السائق لمهاراته في حديث مستطرد حول أي شيء وكل شيء فجلس في الكرسي الخلفي وسأله السائق بعد سيل من التحيات: "فندق يا أستاذ؟".  
"نعم" ولم يزد.

أطل بهي من نافذة السيارة يتفحص بيروت بحثاً عن تلك المدينة التي عرفها من أفلام السينما المصرية فلم يجدها، التوتر يجيم على كل شيء... آثار القصف بكل الأحجام على المباني وفي الشوارع، وعلى ملامح الناس القليلين الذين رأهم في رحلة السيارة من المطار للفندق، إنهم يحاولون منذ سنوات أن يبعثوا مدينتهم لتخرج كالعنقاء من الرماد. وفي مأساتها تبدو بيروت متحفاً لتاريخ الحرب في العالم كله.. والضحايا متنوعون.. بشر.. مدارس.. مستشفيات.. منازل.. المدينة الرياضية...

وبعد المدينة الرياضية بقليل توقف السائق أمام فندق، لم يهتم بهي بقراءة اسم الفندق ولا السؤال عن مستوى الخدمة... نزل غير مبال بالسائق الذي نزل مسرعاً ليفتح باب السيارة ويحمل عنه الحقيبة، فتحرك بهي متجاهلاً ودسّ في يد السائق عدة دولارات كانت كفيلة بأن يتهلل فرحاً. اتجه بهي مباشرة لاستقبال الفندق وأشار لموظف الاستقبال:

"غرفة مفردة".

وضع جواز السفر أمامه، فأخرج الموظف استمارة وبدأ يملؤها من بيانات جواز السفر، بينما بهي يطلق عينيه خارج الفندق ليتأمل مشهد أكياس الرمل التي تحيط بباب الفندق والمسلحين الواقفين أمامه بأرديتهم الداكنة... مشهد يذكر الناس الذين لم يكن لديهم سبب للنسيان بأن الحرب لم تنته. لم تفلح المعاملة الودودة من موظف الاستقبال والابتسامات الكثيرة التي بذلها لبهي في أن تنتزع من بين أسنانه كلمة واحدة. وسأله الموظف بأدب جم: "كم يوماً ستقيم يا سيدي؟".



"أسبوع" قالها والتقط جواز السفر واتجه نحو المصعد الذي كان مكانه ظاهراً لا يحتاج إلى سؤال، أشار الموظف إلى أحد عمال الفندق ليحمل حقيبة الضيف إلى غرفته، وجاءه صوت موظف الاستقبال. كما لو كان يخرج من بئر سحيق:

"غرفة 303.. الدور الثالث".

لم يكن أمام هي ليفلت من ضجيج الطواحين الدائرة في رأسه إلا أن ينام.. دخل غرفته فوضع الحقيبة على السرير واتجه مباشرة للحمام.. منحه الماء بعض السكينة.. لفّ جسده بالمنشفة وخرج من الحمام، فتح حقيبته فأخرج منها ملابس النوم فارتدى قطعة واحدة منها، وألقى جسده على السرير... وراح في خدر عميق.



بيروت

المجاهد



# 1

استيقظ بهي على رنين الهاتف في حجرته وجاءه صوت موظف الاستقبال باللهجة اللبنانية المميزة، وردّ بهي باختصار:  
"في الغرفة.. شكراً".

رفع الغطاء عن جسده شبه العاري واتجه للحمام فصب الماء على جسده في سرعة، وخرج ليرتدي ملابسه ويتأمل الغرفة للمرة الأولى.. كانت بعد فتح الستائر مشرقة بشمس بيروت الحية الدافئة بينما المشهد خارجها تعلوه كآبة لا تخطئها العين... الحرب أقل احتداماً لكن دخاها خائف ورصاصها الطائش لا يتوقف إلا لينطلق مرة أخرى. صحيح أن الكثيرين كانوا يرون أن ما يحدث هو الفصل الأخير لكنه الفصل الأكثر مأساوية، فبحثاً عن الحسم سالت دماء كثيرة وأصبحت المعارك مجازر إبادة شاملة أكثر من كونها صراعاً عسكرياً من النوع المألوف.

"ترى أين أنت في هذا العالم المضطرب يا شهاب".

كان شيء ما يجعل بهي يفكر في شهاب دائماً كما لو كان متأكداً من أنه ما زال حياً، الآن فقط وهو في قلب بيروت أصبح الأمر موضع شك وتساؤل.. لكنه تساؤل حائر محير يحمله صاحبه ويكتوي بعذاباته ولا يعرف إلى من يتوجه به.

"نحن لا نختار آباءنا لكننا نختار أصدقاءنا".

تذكّر كلمات شهاب وتمتم: "نعم.. وأحياناً نختار أيضاً نهاياتنا الفاجعة.. أو نختارنا وتصر علينا وتجبرنا على الاقتران بها".

دق الباب فاتحه إليه في خطوات ثابتة.. فتح لعامل الفندق الذي

قدم له طعام الإفطار ووضعه أمامه بنظام ووضع الفاتورة، وقّع بهي الفاتورة وسلمها للعامل الذي انسحب في هدوء.

استعاد بهي شيئاً من توازنه، وبدأ يعود إلى طبيعته، أكل باعتدال بعد أن كاد أن يتحول فعلياً إلى مُضرب عن الطعام تحت وطأة التحولات المفاجئة المتلاحقة التي داهمته طوال الأيام الماضية. تناول عدد اليوم السابق من جريدة "الحياة" التي لم تعد تصل بانتظام لمسقط رأسها بيروت منذ غادرهما إلى لندن بحثاً عن الأمان.. وكثير من الفنادق اللبنانية أصبحت تعتبرها طقساً يومياً لروادها حتى لو لم تتوفر في موعد صدورها.

ما كان يشغل بهي في المقام الأول الخطوة الأولى في هذه المدينة التي لا يعرف فيها أحداً.. ولم تكن غربته المشكلة الوحيدة بل كانت المشكلة الأكبر حالة بيروت المخيفة، فهي أشبه بغابة مظلمة كثيفة الشجر تتوزع الفخاخ القاتلة في أرجائها.. وهي لا ترحب بأحد ولا تغلق بابها في وجه أحد. لكن بهي ما أن دخل من بابها حتى شعر أنه أمام عشرات الأبواب لا يعرف إلى أين يؤدي أي منها، وإن لم يفقد بعد حماسه ورغبته في خوض التجربة.

سلاح واحد كان يمنح شهاباً إحساساً بالأمان النسبي هو مبلغ كبير من المال منحه إياه أبوه على مضض لنفقات السفر، فرجل الأعمال الكبير لم يتلحأ أبداً فكرة أن يضيع ابنه الأصغر زهرة عمره في الجري وراء حلم الصحافة، بينما يملك بالفعل أن يحقق كل ما يحلم به غيره من نجاح ومال إن التحق بإمبراطورية أبيه الضخمة.

كانت المرة الأولى منذ سنوات التي يحتضن فيها الأب ابنه ويفرمه بحنان حقيقي منذ أن غادر منزل الأسرة جرياً وراء "المجد" كما كان

أبوه ينطقها دائماً ساخراً. تمنى أبوه له التوفيق، وقال منبهاً ومنتبهاً إلى  
خطورة المغامرة: "ليتنى ما أرخيت لك الحبل من البداية في هذا  
الطيش... سافر يا حمار".

وضحكا ضحكة من القلب منحت بهي إحساساً ظن لسنوات أنه  
في غنى عنه.. بل طالما فرّ منه معتبراً أنه حنان خائف.

خرج يمي من المصعد متجهاً إلى استقبال الفندق وسلم مفتاح الغرفة واتجه للباب الخارجي الذي امتدت يد العامل الواقف أمامه لتفتحه بشكل آلي.. توقف على رصيف الفندق للحظات... وتحركت صوبه سيارة تاكسي ببطء، فتح الباب وركب وطلب من السائق التوجه للسفارة المصرية. السيارات المهشمة المتناثرة على جوانب الطرق كانت تشبه لوحات الفنانين السرياليين في وحشيتها وعبيثتها، حاول السائق أن يتحدث مع يمي الذي وجد نفسه - لأول مرة - منذ أن ألقى به في هذا الكابوس مستعداً للكلام. سأله عن بيروت ومعاناتها، وأجاب الرجل بصوت قلق وعيون زائغة، ومزج إجاباته بشيء من المزاح أطلق من صدر يمي ضحكة هي أقرب إلى نفثة مصدور.

توقفت السيارة أمام السفارة المصرية التي تركت عليها أجواء الحرب مسحة من التوتر والتوجس.. دسّ في يد السائق عدة دولارات بشكل ينبئ بوضوح عن قلة خبرته بالمدينة. استقبله موظف الاستقبال بفتور مصري صميم، فالمصري بالنسبة لموظف سفارته في الخارج هو غالباً عبء، وفي بيروت التي كان بما غير قليل من المصريين عندما بدأت الحرب كانت طلباتهم مرهقة ولم تكن السفارة قادرة حتى على القيام بواجباتها الروتينية، فهناك سيل لا ينقطع من الطلبات... طلبات للترحيل على نفقتها... وطلبات مساعدات مالية لا تملك السفارة توفيرها... وطلبات شحن جثث موتى واستعلام عن مفقودين... أعطاه الموظف نموذجاً جاهزاً فرضت ظروف الحرب، إعداداه فهو ليس عرفاً في أية



سفارة مصرية أخرى، وأصر الموظف أن يملاؤه بمي قبل أن يجيب عن أي تساؤل.

غاب الموظف لدقائق وعاد حاملاً كوباً خزفياً تتصاعد منه الأبخرة، وجلس خلف مكتبه بعد أن رmq النموذج الخالي من البيانات بنظرة غير ودودة. بادره بمي بلهجة أمرة مشفوعة بتقلم الكارت الشخصي: "أريد مقابلة الملحق الإعلامي".

نظر الموظف في البطاقة ورفع سماعة الهاتف وطلب رقماً ثم تحدث مع الطرف الآخر مختبراً باسم بمي وصفته. أغلق الهاتف واصطحب بمي إلى ممر يقود إلى داخل المبنى وأصبحت معاملته أكثر ودأ. توقف أمام باب مغلق وطرق طرقتين وجاءه صوت من الداخل يأذن له في الدخول.

فَض رَفِيق صابِر - هكذا تشير لوحة موضوعة على مكتبه - من خلف المكتب واستقبل بمي ودعاه للجلوس: "مؤكد لم تشعرِك المعاملة في الخارج بالراحة.. هذه أجواء عصبية بدلت كل شيء".

كان توضيحاً لا اعتذاراً، لكنه منح بمي قدراً من التفاؤل بأن رفيق شخص يمكن التفاهم معه والاستعانة به. بعد التعارف بدأ رفيق يوجّه الأسئلة المتوقعة لضييفه، وفكّر بمي هل يكون المدخل الأنسب جورج بيير دي سانت أرنو أم شهاب علم الدين؟ أبدأ بالبحث عن المجهول الذي صار معلوماً أم عن المعلوم الذي لا هو معلوم ولا مجهول بل طيف موري حضر قسراً واحتل المساحة الأكبر من حياة بمي؟

حكى بمي القصة كلها لرفيق وطغت شخصية الديبلوماسي على مشاعر الإنسان.. فالابتسامات محسوبة.. والمفاجآت الصارخة في القصة هي مجرد كلمات، رشف رفيق المشروب الدافئ وانتقل من الأريكة التي

كان يجلس عليها في مواجهة هي، وجلس على مكتبه في إشارة واضحة إلى الحاجز الزجاجي الرسمي الذي يقف بينهما: "اسمع يا أستاذ هي... الأمر فيه خيوط كثيرة يجب فصلها عن بعضها البعض.. التحقيق الرسمي في قضية اللحوم ليس لنا به صلة.. ولم يطلب منا رسمياً أي شيء بشأنه، وحتى يحدث هذا نحن بعيدون عنه تماماً..".

"أما موضوع صديقك شهاب علم الدين فقدرتنا على مساعدتك عليه محدودة".

قالها وهو يدون بيانات دخول شهاب إلى لبنان: "ونخبرني المحدودة في هذا البلد صديقك تطوع مع أحد أطراف الحرب.. وإذا توفرت معلومات أخرى فقد نستطيع الاهتداء إلى مصيره..."

ورفع عينيه عن الأوراق وابتسم لبهني بودة صادق: "اطمئن هذه ليست مقدمة للاعتذار... أعدك أن أساعدك على قدر ما أستطيع".

وضع هي فنجان القهوة من يده وتأهب للانصراف وشجعه جو اللقاء على أن يسأل رفيق بشكل مباشر وهو يتأهب لمغادرة مكتبه: "وبماذا تنصحين؟".

تحرك رفيق من وراء مكتبه وصافح هي بحرارة ونظر في عينيه بعمق متخلياً عن عيون الدبلوماسي الزجاجية:

"قبل أن أعمل في الخارجية كنت صحفياً.. وأستطيع أن أعرف ما يشغلك الآن.. لكنني أنصحك بالحد من الشدائد... جورج بيير دي سانت أرنو ليس مجرد رجل أعمال..".

وبدأ رفيق يضغط على الحروف بشكل محسوب وموحي:

"إنه غول... غول يمكن أن يتلعلك بلا رحمة.. فهو تاجر

أغذية.. وسلاح.. وسلام.. وثقافة... وكل شيء، ولا تكاد توجد  
بندية في لبنان إلا وضغطت يده على زنادها يوماً ما".

لم يكن هي أكثر إحساساً بالرغبة من الإقدام على خوض التجربة  
من هذه اللحظة وكانت ملاحمه تعكس ذلك بوضوح.

"نصيحة ثمينة جداً" لم يجد غير هذه الكلمات القليلة المعبرة ليردّ بها  
على كلمات رفيق التي قالها وهو واقف على باب الغرفة.

وقبل أن يمد يده ليفتح باب الغرفة لخروج هي قال له: "هذه الحرب  
أكلت كثيرين.. وفضول الصحافة جنى على كثيرين أرجو ألا تكون  
منهم.. الوكالة الصحفية التي كانت تعرض تمويل رحلتك وتراجعت  
وهذا مؤشر شديد الأهمية لدرجة حساسية الموضوع... انتظر مني  
اتصلاً خلال يومين... ولا تتخلّ عن ثلاثة أشياء في كل تنقلاتك:  
جواز سفرك وأموالك... والحذر".

لم يكن الاهتداء لمكتب جورج بيير دي سانت أرنو في بيروت صعباً.. وقبل أن يبدأ هي رحلة البحث التي طالما تخيلها طويلة مثيرة مليئة بالغموض كانت رسالة قصيرة تنتظره عند عودته من السفارة في غرفته في الفندق تدعوه لمقابلة مدير العلاقات العامة بشركة سامبل إتش كي (SAMBL.HK)، وبلا غموض أو إثارة، الدعوة محددة للقاء مسؤول العلاقات العامة في العاشرة من صباح اليوم التالي في المبنى الإداري للشركة، و"ستمر سيارة من الشركة في التاسعة والنصف صباحاً لتوصيلكم لضمان سلامتكم الشخصية"، فكَرَّ هي في المخاطر لوقت قصير وبدأت العبارة الأخيرة في الرسالة كما لو كانت تحمل تهديداً مبطناً - أو هكذا ظن لدقائق - ولكنه كان يعرف عن نفسه جيداً أنه يفتقر للحس الأمني وبالتالي لم يكن في حاجة لوقت طويل ليقرر قبول الدعوة.

كانت مفارقة مدهشة أن يشعر هي بقدر كبير من السكون النفسي في بيروت النائمة على القلق بينما لم يشعر بالقدر نفسه في القاهرة... ربما لأن الأشياء الواضحة مريحة حتى لو كانت قاسية أو صاخبة. أخلد هي للنوم وهو يَمْنِي نفسه بلقاء يشفي غليله ويجيب عن الكثير من الأسئلة التي تؤرقه، كان يشعر وهو في الليلة الثانية في هذا الفندق أنه مقيم منذ فترة طويلة، فأصبح أكثر استرخاء رغم النصائح المتوالية من إدارة الفندق وسائقي التاكسي ورفيق بضرورة الحذر المميت.

في الموعد تماماً جاءت السيارة المزينة بعلم صغير يحمل شعار

(SAMBL.HK) كما لو كان علم دولة ولم يكن جورج بير دي سانت أرنسو بأقل من ذلك فهو دولة داخل الدولة وربما كان دولة فوق الدولة. وجاءت السيارة في الموعد تماماً وقبله بكثير كان يهي مستعداً منتبه الحواس، قدّم السائق نفسه لبهي وكانت شارة معدنية ذهبية اللون على سترته السوداء تحمل شعار الشركة، واتجه السائق بخطوات محسوبة ليفتح باب السيارة لبهي ويفلقه خلفه دون أن ينبس بكلمة.

استدار السائق وجلس خلف عجلة القيادة ونظر لبهي في المرآة نظرة خاطفة، تحركت السيارة ببهي من أمام الفندق لتعبر شارعاً إثر آخر ثم استدارت نحو اليسار ودخلت شارعاً شديد الأناقة، عرف فيما بعد أنه شارع الحمراء... أخذ أفخم شوارع بيروت. ومرت السيارة من أمام ميرديان الحمراء الغاص بالنزلاء فكان شديد الأناقة لا يبالي بالحرب، على غير ما توقع. توقفت السيارة وصحبه السائق إلى مبنى فخم تزينه لافتات سامبل إتش كي (SAMBL.HK) بأحجام مختلفة... المكان كله مصقول بشكل ملفت، مرآة للذوق الفرنسي، والناس تتحرك في رشاقة أسرة.

قاده السائق إلى مكتب الاستقبال فاستمهل الموظف لدقائق... جلس على مقعد جلدي أسود فاحم مريح بجانبه منضدة صغيرة عليها منفضة سجائر وشعار معدني للشركة وكتيب تعريفي معدّ بعناية.. كانت الدقائق التي قضاها كافية لأن يتأمل التناقض بين الريق الأخاذ للأشياء ومعانيها، وتذكر ذلك الشيخ الجزائري الذي قيل له إن الفرنسيين جاءوا الجزائر لنشر الحضارة فقال في عفوية مذهلة: "ولماذا أتوا بكل هذا البارود؟".

بدأ يهي يرى الأشياء بعيني شهاب علم الدين، ولم تعد تبهره

العبارات الجوفاء عن عاصمة النور.. وبرج إيفل.. وفلاسفة التنوير التي تستعين بها هذه الشركة ذات الأذرع الأخطبوطية، تناول كتاب التعريف وقلب صفحاته العربية وتحوّلت عيناه بين السطور، استوقفه أن للشركة جهوداً في دعم مؤسسات إغائية غربية وبرامج ذات شعارات إنسانية... ولم يكن بإمكانه فك كل الألغاز دفعة واحدة.

انتقل بهي إلى مكتب مدير العلاقات العامة... فرنسي من أصل عربي ناعم نعومة الأفاعي ينزلق بشكل زئبقي فلا تكاد تمسك به.. تلك مهارته الوحيدة. رحّب بهي ودخل إلى الموضوع مباشرة: "في حدود علمي سبب زيارتك المباشر صفقة اللحوم التي أثارت ضجة في مصر قبل أسابيع... ونحن على يقين من أنك كصحافي نزيه يحترم الأعراف المهنية لن تقبل أن تكون سلاحاً في يد شركة منافسة للتشهير بنا.. نقدّر الصحافة إلى أبعد حدّ، ولذلك فضّلنا أن نتصل بك مباشرة لنضع كل الحقائق أمامك".

"يبدو أن التعاقدية الغربية الصارمة ستكون لها فائدة لأول مرة" هكذا حاول بهي أن يفهم المدخل المباشر الذي اختاره رجل العلاقات العامة الفرنسي المتعرب.

"الذي حدث مسيو بهي خطأ إداري واجهناه بكل حسم، والذي حدث أن منظمات إغائية عديدة دخلت مخيم صبرا وشاتيلا بعد الكارثة وكانت الحالة مأساوية".

... تجمعت على وجه بهي سحب قائمة من الغضب الأسود، فانتفض واقفاً وقاطع محدّثه بغلظة قاسية: "دخلتم ماذا؟".

"أستاذ بهي" قالها مهدّثاً بنبرة تهديد مبطنة... "الحرب نحن لم

نصنعها.. بل صنعها اللبنانيون مدعومين بأطراف عربية وغير عربية".

وتحدث الرجل بتحدٍ: "أرجو ألا تنسَ أنهم في حرب المخيمات كان هناك لبنانيون يحاصرون إخوانهم اللبنانيين وأن المحاصرين أكلوا لحوم الكلاب والقطط.. وفي آخر الشوط استصدروا فتوى دينية للموجودين تحت الحصار في حرب المخيمات تجيز لهم أكل لحوم البشر".

وبدأ هي يحدث نفسه: "هذه المقدمة لا تبشر بخير أو كما يقولون عندنا في مصر (أول القصيدة كفر)".

عادت لهجة الفرنسي المتعرب إلى هدوئها وبدأ يبي على المقدمة السابقة موجّهاً كلامه لبهي بلهجة تقريرية لا تخلو من تردد: "نحن شركة تجارية، وقد اكتوينا بالحرب ربما أكثر من غيرنا، دورنا في المخيمات كان إنسانياً محضاً لم تكن وراءه أية أبعاد سياسية أو تجارية".

"أكمل" قالها هي وهو يجلس متأهباً لسماع كارثة أبشع من كل ما سمع وكل ما تخيل.

"الحالة في المخيم كانت بالغة البشاعة والجثث كانت أكواماً.. طلب منا، كشركة تعمل في مجال حفظ اللحوم ونقلها أن نقدم معونة لم ننتأخر فيها.. وخلال أيام كانت الجثث تملأ ثلاثياتنا.. كانت هناك ضرورة بيئية في المقام الأول..."

ابتلع هي كلام محدّثه وإن لم يستطع أن يلع ريقه، وملأ الغضب عينيه وقال: "دون تبريرات... حتى الآن أنت لم تقل ما الخطأ غير المقصود الذي حدث؟".

مدّ الرجل يده بعلبة شيكولاتة فاخرة لبهي ليأخذ منها قطعة

فدفعها بهي يده دون أن ينطق وعيناه تتقدان بالغضب.

واستطرد الرجل: "بعض الجثث استخدمت في تجارب تتصل بحفظ اللحوم دون علم إدارة الشركة... تجاوز في استخدام الصلاحيات من إحدى الإدارات الفرعية".

وبشكل لاشعوري تقلصت المعدة بهي وانعكست حالته على ملامح وجهه الذي اكتسى بلون الدم واحتقن احتقاناً شديداً... وبدأ بهي يتقيأ بعنف.

توقف الرجل عن الكلام واستدعى الأمن من هاتفه الداخلي، فجاءوا لحمل بهي الذي أغمي عليه وراح في غيبوبة. بقي في غرفة مجاورة حتى انتهت الإسعافات الأولية.. أفاق بهي وجاءه بعد قليل الفرنسي المتعرب يرمقه بنظرة هي خليط من الإشفاق والازدراء، وباده قائلاً:

"نحن ندرك شعوركم الطاعي بالاختلاف عنا... ولهذا فضلنا أن نصدر الجزء الأكبر من هذه اللحوم الناتجة عن مشروع تجريبي إلى الدول الأوروبية كمعلبات مخصصة لتغذية الحيوانات الأليفة... والجزء القليل الذي صدر إلى بلادكم جاء إليها عبر مافيا معروفة تشتري منتجات مماثلة من الأسواق الأوروبية بأسعار زهيدة وتعيد تغليفها وتصديرها".

استدار الفرنسي المتعرب وأطلق عينيه خارج النافذة مستطرداً: "... وفي النهاية، هذا الخطأ الذي أثارك لدرجة القياء يا مسيو ثمن طبيعي للتقدم... فلا تقدم دون ثمن وتضحية وقسوة... طبيعتكم العاطفية من أهم أسباب رؤيتكم السلبية لنا... نحن نجرب فنصيب ونخطئ...



وبالتالي نتقدم..".

ثم حذق في عينيه متحدياً: ".. أما أنتم فالزمن يتجاوزكم وأنتم  
مقيّدون بقيود العاطفة والقداسة... إنني أحدثك باعتبارك مثقفاً سيعي  
معنى ما أقول"..

وصمت بمي للحظات...

ثم بصق في وجهه!!



بيروت

باريس



اكتشف هي بعد أن صحا من نومه في اليوم التالي أنه لم يكن في كابوس وهو ما ضاعف صدمته... جاء من مصر بحثاً عن إثارة وأسرار عصرية يطاردها وتراوغه، فإذا هو أمام منظومة متكاملة من العري الوقح، أشياء عارية بلا أقنعة ولا حجب وعريها الرخيص يفقدها كل معنى. بهذه البساطة يتحدثون عن الإنسان وينزعون القداسة عن حياته وموته، ويتجرأون عليه ويقدمون لحمه للكلاب والقطط معلباً. حالة من التبلد لم يجد مفراً منها، ربما هي التي أنقذت هي من أن يصاب بانغيار عصبي حاد، وجاء اتصال تليفوني من السفارة المصرية كان فيه صوت رفيق مكسواً بوقار حزين: "وهل هناك أسوأ مما سمعت؟".

كان سؤالاً منطقياً سألته هي لنفسه وهو يتلقى دعوة رفيق لزيارة السفارة في أقرب وقت. كانت نهاية زيارته للشركة الفرنسية تشعره أن نهاية الرحلة أسرع مما كان يتصور بكثير... ارتدى ملابسه وصار العبوس ملمحاً ثابتاً لوجهه الذي أضافت له الصدمات تجاعيد كان يحتاج رسمها لسنوات.

لم ينسه عامل الاستقبال بعد الزيارة الأولى فقاده مباشرة لمكتب الأستاذ رفيق... اكتسى وجه رفيق هذه المرة بمسحة إشفاق وجلس هي وهو لا يرى شيئاً في العالم يمكن أن يكون أسوأ مما سمع. سألته رفيق عن أخبار مهمته وأدهشه أن يعلم بأمر زيارته للشركة، وترك رفيق التحفظ الرسمي وقال لبيهي:

"زيارتك لنا أنقذتك من الموت المحقق... لأنهم فضلوا أن

يتفاهموا معك مباشرة على أمل أن تغلق الملف طواعية وتعود...  
وبمجرد أن زرت السفارة أصبح التخلص منك في الظلام وادعاء  
الجهل بوجودك ابتداءً أمراً عسيراً".

بدأ شيء من الهدوء يعود لبهي وأحس أن شجاعته كانت في محلها،  
وتساءل: "والآن؟".

ردّ رفيق مؤكداً ما سبق أن قاله في الزيارة السابقة: "السفارة  
ليست طرفاً في الأمر على الإطلاق... أنت هنا مواطن مصري أسدي  
لك النصح بصفة شخصية ومن منطلق إنساني، وما سأقوله لك عرفته  
بالأمس فقط ومن صديق لبناني نافذ أطلعني بصفة شخصية على بعض  
الخلفيات الحقيقية للقصة... لكن في البداية قل بالضبط ماذا حدث في  
زيارتك لمكتب أرنو".

قصّ بهي القصة على رفيق وشعر للمرة الأولى أنه يتخلى عن  
السمت الرسمي الذي وسم لقاءهما الأول فتخلى هو الآخر عن شيء من  
البروتوكول وطلب منه أن يقدم له كوب شاي...

انطلق رفيق يفضّ بعضاً من الغلالات التي تحجب الحقيقة عن عيني  
بهّي: "لم يكن الأمر خطأ كما قال لك الفرنسي الذي قابلته.. بل تجارة  
منظمة بدأت بالصدفة... فمع استمرار سقوط الضحايا في الحرب  
الأهلية فكّر شخص ما في الحصول على أعضاء بشرية منهم للمتاجرة  
بها في تجارة الأعضاء الرائجة، واقتضى هذا تنظيم العمل".

بدأ بهي وهو يسمع كما لو كان شخصاً آخر، أصبح كالجرّاح  
الذي اعتاد رؤية الدماء وإعمال المبضع في الأجساد، كانت ملاحظته تتأثر  
بشكل محسوب لا تشنج فيه. وأكمل رفيق: "منظمة إغاثية توفّر

الواجهة... وميليشيات توفر الوصول للجثث في الوقت المناسب...  
وشبكة علاقات دولية تضمن الاستفادة على أكمل وجه... مجرد تجارة  
في تقديرهم... لا مؤامرة ولا صراع سياسي".

وأحس بهي بمزيد من الوضوح منحه إحساساً بأنه وضع يده على  
الجانب الأكبر من الحقيقة.

"وعلى فكرة يا أستاذ بهي.. التحقيق في مصر لا يعنيهم كثيراً لأن  
الشركة التي صَدَّروا لها في حدود معلوماتي كانت هي الأخرى  
ضحية.. لكن ما يهمهم هنا... أن بعض الكبار متورطون وفتح الملف  
سيزيد الأمور تعقيداً... ولهذا السبب".

وصمت رفيق وبدأ متردداً فشجَّعه بهي: "تكلم دون أدنى حرج يا  
أستاذ رفيق، وتأكد أنني مقدّر شجاعتك... وممتنّ لأشد الامتنان لما  
قدمته لي رغم قيود عملك الرسمي".

كان رفيق يفرغ آخر ما في جعبته: "أنصحك بمغادرة لبنان  
فوراً...".

وقبل أن يصدر عن بهي ردّ أو استفسار قال رفيق: "لو أنهم علموا  
بصلتك بشهاب علم الدين لقتلوك فوراً".

عاد بهي إلى توتره فانتفض واقفاً بشكل لاشعوري ووقفت  
الكلمات في حلقه... ضغط على الكلمات بصعوبة حتى لا تخرج صارخة  
صاخبة: "شهاب علم الدين؟! لقد كدت أنسى موضوع شهاب...  
ولكن.. لو علموا بصلتي بشهاب علم الدين لقتلوني... لماذا؟".

وجاء ردّ رفيق حازماً: "نعم شهاب علم الدين دفع حياته ثمناً  
لمحاولة فضح هذه التجارة القذرة... وقد تخلصوا من جثته بالطريقة

نفسها، ولو علموا لقتلوك كما قتلوه".

وكأنها كانت قنبلة فجّرها رفيق في وجهه هي فشطره نصفين.. كل صدمة كان يمكن احتمالها إلا أن يكون هذا مصير شهاب علم الدين... صرخ هي كالمجنون وأمسك بملابس رفيق وهو يهزه بعنف ويصرخ: "لا... لا.. لا.. لا.. شهاب.. لا..".

ونمزقت ملابس رفيق بين يديه، وامتدت ثورته لتحطم كل ما يمكن تحطيمه من أثاث في المكتب.



في غرفة بمصححة نفسية بضاحية المعادي الهادئة بالقاهرة انتهت الرحلة سريعاً... ولم يكن لديه بعد رحلته هذه أي فضول لأن يعرف كيف نقل إلى هذا المكان بل ربما كره الفضول كله... وتمتني لو لم يدخل هذا العالم ولم يحلم بأن يتوج في بلاط صاحبة الجلالة، لكنه أبدأ لم يتمن أن يشطب من حياته صفحة شهاب علم الدين بكل مراراتها.

تحمل بهي حتى خارت قواه وأصيب بالهيار عصبي حاد.

لم يكن هشاً أو قليل الاحتمال، بل كان ما واجهه فوق طاقة البشر... سقطت الأقنعة عن عالمه كله في تجربة تركت فيه أثراً يشبه أثر نصل حاد تمسك به يد مقاتل بدائي قوية.

جاءه زوار كثيرون لكنه كان شاعراً بسعادة خاصة لزيارة أبيه، والأغرب أن الأب كان لديه إحساس غامض بأن بهي تغير فيه شيء ما... إلى الأحسن... الحوارات بينهما كانت مقطوعة دائماً والمسافة كانت تتسع بمرور الزمن.

في كل مرة كانت الزيارة تختتم بمونولوج لا يتغير:

"هل ينقصك شيء؟".

"ينقصني أن أراك في أقرب وقت".

ثم يتبادلان تحيات تقليدية.

لكن بهي ما إن استعاد شيئاً من حيويته وبدأ يتمائل للشفاء حتى تغيرت إجابته على سؤال أبيه وجاءت مشفوعة هذه المرة بطلب، ولأسباب عديدة كان عبد الهادي الأحمد مدفوعاً لإجابة طلب ابنه.

نظر هي إلى أبيه بعينين غائمتين بدموع تمنّاها طويلاً وتآبّت عليه:  
"شهاب كان يدافع عنا جميعاً يا أبي... فتخلّينا عنه حياً وأكلناه ميتاً".  
انهمرت الدموع منهما ساخنة صادقة هادرة وارتفع النشيج،  
وأكمل هي محدّثاً والده بالنبرة الباكية نفسها: "ساعدني يا أبي أن أجمع  
ما يمكن أن يكون رفات صديق عمري وأدفنها".

لم يكن عبد الهادي الأحمدى يتخيل أن تنتهي مساعيه لشد ابنه إلى عالمه عالم المال والسطوة إلى أن يدخل هو نفسه عالم يهي في تجربة غريبة كهذه، وأن يجد نفسه في قلب هذا الإعصار، لكنه في النهاية يتصرف في المقام الأول كأب...

وقد منحته دائماً علاقاته المتشعبة بالمسؤولين... كل المسؤولين... كما هو عالم البنس في أي بلد متخلف قدرة على الحصول على ما يريد، كل ما يريد. لكن ما كان يريد المرء كان يلفه الغموض ويتصف بالغرابة الشديدة.

ما استطاع أن يعرفه في النهاية بعد أيام من الاتصالات والاستفسارات أن ما يطلبه ليس مستحيلاً لكنه مشروط، والشرط الأهم ألا تتحول الجنازة إلى قضية رأي عام بأي صورة حتى لا يعاد فتح الملف... أما المشايخ الذين رجع إليهم فرغم كثرتهم، لم يتفق منهم اثنان على رأي، فمنهم من أجاز دون شروط ومنهم أجاز بشروط ومنهم من حرّم...

كان اسم عبد الهادي الأحمدى كفيلاً بإقناع المسؤولين بتسليمه البضائع المصادرة التي لم يتم التصرف فيها بإعدامها كما هو مألوف، فبسبب حساسية الموقف وغرابة الجريمة بقيت اللحوم التي فجّرت هذه القنابل المتوالية في وجه يهي تحت التحفظ وظل وضعها معلقاً... وبدأ طلب عبد الهادي الأحمدى في نظر بعض المسؤولين حلاً لمشكلة ظلت لفترة دون حل.

كانت جنازة هزيلة غريبة... حُملت العلب التي اختلطت فيها لحوم  
جثث آدمية مجهولة بلحوم بقر في مجموعة من النعوش كأنها ضحايا مذبحه  
وهم بالفعل كذلك. وانطلق المشيعون القليلون الذين كانت قلتهم نتيجة  
تعهد عبد الهادي بأن يتم الأمر دون ضجيج وفي أضيق نطاق.

وبين المشيعين سار بهي الأحمدى مثاقلاً يغالب رغبة عارمة في  
البكاء والتقيؤ، ويبدو كمن يحمل العالم على كتفيه... سار بهي لا يكاد  
يشعر بأحد ويستند لأول مرة منذ سنوات على ذراع أبيه... أفكار  
ومشاعر كثيرة متضاربة تتنازع ومشاهد كثيرة تتوالى أمام عينيه ويلج  
عليه سؤال واحد:

"ترى... إلى أي علبة من هذه أشعر بالحنين إذا تذكرت شهاب  
علم الدين؟".

قـمـة

## تفويده لازم

أولاً: الجنرالات الفرنسيون الواردة أسماؤهم في الرواية شخصيات حقيقية، ورسائلهم الواردة بما نصوص حقيقية منقولة من مصادرها التاريخية.

ثانياً: الشاعر صلاح عبد الله شخص حقيقي بملاحمه الواردة في الرواية، وهو كفيف منحه الله بصيرة نادرة وعقلية ناقدة وموهبة إبداعية جبارة، والأبيات المنسوبة إليه في الرواية هي من ديوانه المخطوط "رباعيات".

ثالثاً: قصيدة "بيروت" من أعمال كاتب الرواية ومنشورة في أحد دواوينه، والوارد في الرواية جزء منها.

رابعاً: دونالد فاجنر أميركي عضو مجلس الكنائس الأميركي شخصية حقيقية والشهادة الواردة في الرواية حقيقية ومنشورة في عدة مصادر صحفية.

مدوح الشيخ



## سيرة ذاتية

الاسم: ممدوح محمود محمد الشيخ علي

الشهرة: ممدوح الشيخ

تاريخ الميلاد: 1967/8/14

الجنسية: مصري

كاتب ومفكر إسلامي، عضو منظمة "كتاب بلا حدود"  
(ألمانيا)، وردت له ترجمة في الطبعة الأولى من: "معجم البابطين  
للشعراء العرب المعاصرين".





## أعمال إبداعية منشورة

- 1 - نقوش على قبور الشهداء (ديوان شعر)، مركز يافا للدراسات والأبحاث، مصر، الطبعة الأولى 1996، الطبعة الثانية 2003.  
طبعة إلكترونية على nashri.net - 2004.  
طبعة إلكترونية على diwanalarab.com - 2004.
- 2 - عاصمة للبيع (مسرحية)، دائرة الثقافة والإعلام بإمارة الشارقة، دولة الإمارات 2000.
- 3 - هو المستحيل (قصيدة شعر)، مركز يافا للدراسات والأبحاث، مصر 2003.  
طبعة إلكترونية على nashri.net - 2003.
- 4 - الحلم المسروق (ديوان شعر بالعامية)، مركز يافا للدراسات والأبحاث، مصر 2003.
- 5 - الندى والموت (ديوان شعر)، مركز يافا للدراسات والأبحاث، مصر 2003.  
طبعة إلكترونية على diwanalarab.com - 2004.  
طبعة إلكترونية على nashri.net - 2004.



## مكتاباته نقدية تناولته أعماله

\* "مدوح الشيخ وعماد أبو صالح شعاعان من شمس شعر تشرق"، منشور في: "كتابة: رؤى وذات"، صافي ناز كاظم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 2003.

\* "مقاربات نقدية في شعر ممدوح الشيخ"، تأليف الأساتذة: رمضان أبو غالية، صبري عبد الرحمن، أحمد مرسل، سامح القدوسي، إصدارات نادي الأدب بيت ثقافة قويسنا، مصر 2004.

### مؤلفات أخرى منشورة

- 1 - أشهر الأحلام في التاريخ، مكتبة ابن سينا، مصر 1993.
  - 2 - المسلمون ومؤامرات الإبادة، مكتبة مدبولي الصغير، مصر 1994.
  - 3 - التنبؤات والأحلام من الخرافة إلى العلم، دار التضامن، لبنان 1996.
  - 4 - الإسلاميون والعلمانيون من الحوار إلى الحرب، الطبعة الأولى، دار البيارق، الأردن 1999.
- الطبعة الثانية، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، الأردن.

- 5 - البابا شنودة والقدس: الحقيقي والمعلن، خلود للنشر، مصر 2000.
- 6 - الشعراوي والكنيسة: ماذا قال الأنبا للشيخ؟ طبعة إلكترونية - e-kotob.com، 2002.

- 7 - مقاربات نقدية في شعر رمضان أبو غالية، بالاشتراك مع الأساتذة: صبري عبد الرحمن، أحمد مرسل، سامح القدوسي، من إصدارات نادي

الأدب بيت ثقافة قويسنا، مصر 2004.

8 - الجماعات الإسلامية المصرية المتشددة في آتون 11 سبتمبر: مفارقات

النشأة ومجازفات التحول، مكتبة مدبرلي، مصر 2005.

## أعمالها المنشورة أو حرّرها

اكتشف وأعاد نشر رواية: "اعترافات حافظ نجيب: مغامرات جريئة مذهشة وقعت في نصف قرن" للمغامر المصري حافظ نجيب، وهي الرواية التي اقتبس عنها المسلسل التلفزيوني المصري الشهير "فارس بلا جواد". وقد قدّم لها وألحق بها دراسة عن حياة مؤلفها.

1 - اعترافات حافظ نجيب: مغامرات جريئة مذهشة وقعت في نصف قرن (إعداد للنشر).

الطبعة الأولى، 1996، دار الحسام، لبنان - مصر.

الطبعة الثانية، دار الانتشار العربي، بيروت 2003.

2 - حرّر (بالاشتراك) موسوعة "اليهود واليهودية والصهيونية"، 8 مجلدات، لمؤلفها المفكر العربي الإسلامي المرموق الدكتور عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، مصر 1998.

3 - حرّر (بالاشتراك) موسوعة "اليهود واليهودية والصهيونية" لمؤلفها المفكر العربي الإسلامي المرموق الدكتور عبد الوهاب المسيري، نسخة ميسرة ومختصرة (مجلدان)، دار الشروق، مصر، بالاشتراك مع مركز زايد للتنسيق والمتابعة بدولة الإمارات، 2004.

## أعمال تحته الطبع

- 1 - العلمانية والدين: اقتراب جديد، دار التضامن، لبنان.
- 2 - القصة القصيرة المصرية: النشأة - التطور - التمرد، دار الشرق الأوسط، سرايفو.
- 3 - (ترجمة) فرنسا في القرن التاسع عشر (1830-1890)؛ - تأليف: إليزابيث لاتيما.
- 4 - الوصايا.
- 5 - الشعراوي والكنيسة: ماذا قال الأنبا للشيخ؟
- 6 - الأقباط والدولة والغرب: من الصياد ومن الفريسة؟

### دورياته نشرت دراساته ومقالاته وقصائده

- جريدة الحياة (لندن) - جريدة القدس العربي (لندن) - مجلة الغد العربي (لندن) - مجلة النور (لندن) - جريدة المسلمون (لندن) - مجلة مرصد (لندن) - جريدة المستقلة (لندن) - جريدة الاتجاه الآخر (هولندا) - جريدة الأيام العربية (قبرص) - مجلة الشاهد (قبرص) - مجلة رسالة الجهاد (مالطة) - مجلة الرائد (ألمانيا) - مجلة الدليل (ألمانيا) - مجلة الإسلام وفلسطين (ألمانيا) - مجلة القلم (أميركا) - مجلة الصراط المستقيم (أميركا) - مجلة الرشاد (أميركا) - جريدة الوطن (أميركا) - جريدة الوفاق (إيران).

- جريدة البيان (الإمارات) - مجلة تراث (الإمارات) - مجلة منار الإسلام (الإمارات) - مجلة المنتدى (الإمارات) - مجلة شؤون اجتماعية (الإمارات) - جريدة العالم الإسلامي (مكة المكرمة) - المجلة العربية (السعودية) - مجلة

الفيصـل (السعوديـة) - مجلـة الحرس الوطني (السعوديـة) - مجلـة كليـة الملـك تحالـد  
 العسـكريـة (السعوديـة) - مجلـة الآطام (السعوديـة) - مجلـة أبـعاد (السعوديـة) -  
 جريدـة الجزيرـة (السعوديـة) - جريدـة اليـوم (السعوديـة) - مجلـة الوعي الإسلامي  
 (الكويت) - المجلـة الخيريـة (الكويت) - جريدـة الرأـي العام (الكويت) -  
 جريدـة الفنـون (الكويت) - مجلـة قرطاس (الكويت) - مجلـة التقدـم العلمي  
 (الكويت) - مجلـة الفرقان (الكويت) - مجلـة الهدايـة (البحرين) - جريدـة الشرق  
 (قطر) - جريدـة الاتحاد (العراق) - جريدـة اليـومية (العراق) - جريدـة البلد  
 (لبنان) - مجلـة الفكر الجديـد (لبنان) - مجلـة الوحدـة الإسلاميـة (لبنان) - مجلـة  
 المحجـة (لبنان) - جريدـة الاستقلال (فلسطين المحتلة) - جريدـة التجديـد  
 (المغرب) - جريدـة الصحافـة (السودان) - جريدـة الثورـة (اليمن).

مجلـة المختار الإسلامي (مصر) - مجلـة المنار الجديـد (مصر) - مجلـة  
 حوارات المستقبل (مصر) - مجلـة منبر الشرق (مصر) - جريدـة الشعب (مصر)  
 - جريدـة الأسبوع (مصر) - جريدـة مصر (مصر) - جريدـة صوت الشعب  
 (مصر) - جريدـة الأحرار (مصر) - جريدـة العربي (مصر) - جريدـة الجمهوريـة  
 (مصر) - مجلـة مراجعات (مصر) - مجلـة البدايـة (مصر) - جريدـة القاهرـة  
 (مصر) - جريدـة المصري اليـوم (مصر) - جريدـة فـضة مصر (مصر) - جريدـة  
 الدستور (مصر) - جريدـة اللـواء الإسلامي (مصر) - جريدـة آفاق عربيـة  
 (مصر).

## جوائز

حاصل على جوائز عديدة عن إبداعه في الشعر والمسرح داخل مصر وخارجها منها:

- \* جائزة مؤسسة "اقرأ الخيرية"، مصر، المسابقة الثقافية للشباب لعام 1991، المركز الثالث في مجال الشعر.
- \* جائزة مؤسسة "اقرأ الخيرية"، مصر، المسابقة الثقافية للشباب لعام 1992، المركز الثاني في مجال المسرح عن نص ما زال مخطوطاً.
- \* جائزة أفضل قصيدة (المركز الثاني) من "المجلس الأعلى للثقافة"، مصر 1999، عن قصيدة "نقوش على قبر شهيدة".
- \* جائزة "الإبداع العربي" من: "دائرة الثقافة والإعلام بإمارة الشارقة" بدولة الإمارات العربية المتحدة في مجال المسرح (المركز الثاني) عام 2000، عن مسرحية "عاصمة للبيع".
- \* جائزة "أحمد فتحي عامر" في مجال الشعر (المركز الثاني) من "الهيئة العامة لقصور الثقافة"، مصر، الدورة الأولى، 2003.
- \* جائزة "أحمد فتحي عامر" في مجال الرواية (المركز الثالث) من "الهيئة العامة لقصور الثقافة"، مصر، الدورة الثانية، 2004، عن رواية "القاهرة - بيروت - باريس".
- \* جائزة أفضل قصيدة (المركز الثاني) من "نادي جازان الأدبي" بالملكة العربية السعودية في المسابقة الثقافية لعام 1423 هجرية، عن قصيدة "بقصائدي ويقيني".



## مساهمات أخرى

- \* مقرر أمانة الدعوة والتثقيف بحزب العمل (1993 - 1996).
- \* أحد مؤسسي حزب "الوسط المصري" (1998).
- \* باحث في "المركز الدولي للدراسات" (1998 - 2001).
- \* يشرف على تحرير الصفحة الدينية بجريدة الدستور، مصر 2005 - .
- \* شارك في تأسيس "مركز المستقبل للدراسات والأبحاث"، مصر (المدير التنفيذي - سابقاً).
- \* عضو "المنظمة المصرية لحقوق الإنسان".
- \* عضو "رابطة الأدب الإسلامي".
- \* عضو مؤتمر "أدباء مصر في الأقاليم".
- \* منسق "حركة حماية حقوق الناخب" (حماية).
- \* قُدمت ورقته الفكرية: "ماذا أعطى الإسلام للبشرية" في أول مؤتمرات "اللجنة العالمية لنصرة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم" (لندن - نوفمبر 2002).
- \* شارك في العديد من المؤتمرات العلمية والثقافية في مصر ولبنان وليبيا والإمارات.

E-Mail: mmshikh@hotmail.com

mmshikh@maktoob.com

Website: <http://mamdouhalshikh.friendsofdemocracy.net>